

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

العدد: ١٦٤ ذو القعدة ١٤٣٥هـ السنة الرابعة والثلاثون

الظلم

وانعكاساته على الإنسانية

رؤية شرعية

أ. د. عثمان محمد غنيم

عثمان محمد غنيم

* من مواليد (الأردن).
* دكتوراه الفلسفة في التخطيط التنموي، جامعة الرور، جمهورية ألمانيا الاتحادية، ١٩٩٣م.
* ماجستير الجغرافيا من كلية الآداب (الجامعة الأردنية).
* باحث في مجال التنمية مع الوكالة الألمانية للتعاون الفني.
* خبير مناهج علوم اجتماعية.
* استشاري تخطيط استراتيجي.
* أستاذ التخطيط التنموي بجامعة البلقاء التطبيقية (الأردن).
* **الإنتاج العلمي:**
  - نشر العديد من البحوث في مجلات علمية محكمة.
  - عدد من الكتب العلمية في التخطيط الإقليمي والعمراني والتنمية المستدامة.
  - الإشراف على كثير من الرسائل العلمية، على مستوى درجتي الماجستير والدكتوراه.



سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

ص . ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. يأتي في الوقت المناسب، ذلك أن براكين الظلم تتفجر في كل مكان تقريباً، وحممها تكاد تحرق الجميع، وتطال الأبرياء أيضاً، بسبب قعودهم عن الاضطلاع بمسؤوليتهم، والله يقول: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً... ﴾ (الأنفال:٢٥).

إن التشدد والتطرف، وكل هذه الظواهر، التي تطفو على سطح العالم هي أعراض للمرض الأساس، الذي لا يريد أن يعترف به أحد، إنه الظلم وغياب العدل، الظلم السياسي والاجتماعي، والاستلاب الثقافي، وفرض الأنماط والأفكار المغايرة لثقافة الأمة.

إن إشكالية الظلم إشكالية مركبة، لذلك فشلت الحلول بسبب النظر إليها من بعد واحد، فقد لا يجد المظلوم أمامه إلا رد الفعل، دون التبصر بعواقبه.

وسوف تبقى إشكالية غياب العدل والنزوع إلى الحرية ومقارعة الظلم مستمرة، تؤرق العالم، وتعبث بأمنه طالما استمر الظلم والاقتصار على معالجة الآثار بالحلول الأمنية، وطالما ما نزال نلقي القبض على المظلوم؛ فالمزيد من القهر والظلم سوف يزيد من نار المواجهة، ويدفع المظلوم للجوء إلى المحاولات اليائسة.

ومهما تكن المسوغات فإنها لا تبرر العنف والتطرف والمسالك غير الشرعية، إلا أن دراسة الأسباب هي السبيل لمعرفة مكمن الداء، وهذا لا يتعارض مع أهمية معالجة الآثار بالوسائل الأمنية، بحيث لا يجوز أن يحول ذلك دون دراسة الأسباب وتقديم الحلول الناجعة.

وقد يكون الأمر الملفت والمريب معاً أن هذه الاندفاعات البركانية تبدو وكأنها مستوطنة في عالم المسلمين، فهل سبب ذلك الحقد والعداوة التاريخية لهذا الدين.

إن الاستمرار في إلقاء التبعة كلها على الآخرين، سعياً لإعفاء (الذات)، لا يغير من الحال شيئاً، لإننا المسؤولون حقاً، وأن ما يصيبنا إنما هو من عند أنفسنا، حيث باتت تحيط بنا خطايانا.

موقعنا على الإنترنت : www.sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني : E.Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

الظلم

وانعكاساته على الإنسانية

رؤية شرعية

أ.د. عثمان محمد غنيم

الطبعة الأولى

ذو القعدة ١٤٣٥هـ

آب (أغسطس)– أيلول (سبتمبر) ٢٠١٤م

عثمان محمد غنيم.

الظلم وانعكاساته على الإنسانية.. رؤية شرعية.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٤م.

١٩٦ص، ٢٠سم – (كتاب الأمة، ١٦٤)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ١٠٥ / ٢٠١٤

الرقم الدولي (ردمك): ٤ - ٨٩ - ٩٢ - ٩٩٢٧ - ٩٧٨

أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يقول تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾

(إبراهيم: ٤٢-٤٣)

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي جعل رسالة الأمة المسلمة الأساس في هذه الحياة: تمثُّلَ العدل وتجسيده في حياتها، إثارة للاقتداء، ووسيلة لإيصاله للناس، وإغرائهم بالتزامه، وتحذيرهم من الظلم، وبياناً لعواقبه، على المستويات المتعددة، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ...﴾ (البقرة:١٤٣)، والوسطية هنا تتمحض بمعنى التوازن والاعتدال في السلوك والعدل مع الناس، ذلك أن مهمة الأمة المسلمة في الحياة تجسيد العدل ونشره وإبلاغه وحمايته في المجتمع، ومواجهة الظلم ومعالجة أسبابه ومحاصرة آثاره، وبيان مخاطره على الفرد والمجتمع، حيث لم تقتصر مسؤولية الأمة المسلمة عن إقامة العدل في ذاتها ومحاولة إشاعته بين الناس في الحاضر، وإنما تجاوزت تلك المسؤولية إلى الشهادة على الالتزام به ومدى الممارسة لخروقاته واختلالاته وحيدته عن النهج الصحيح في الماضي أيضاً، وبيان عوامل السلامة، التي تؤهل لعبور المستقبل.

وبذلك، فالوسطية لا تعني التعادلية، أو الحياد السلبي، ومسك العصا من المنتصف -كما يقولون- كما أنها لا تعني التنازل عن القيم وتجاوز الضوابط الشرعية وإلغاء مقومات (الذات) لإرضاء (الآخر)، باسم التسامح، كما يتوهمها البعض، ويدعو إليها ويتلاعب بمضامينها ومصطلحاتها أعداء هذا الدين، ويحاول جر المسلمين إليها؛ لأن في ذلك تحولاً عن العدل إلى الظلم وعن الإسلام إلى الجاهلية.

فالله تعالى أنزل الكتاب ليشكل منهج الوسطية وصراطها المستقيم، ووضع الميزان ليكون معياراً للوسطية، ليقوم الناس بالعدل والقسط في حياتهم والحيلولة دون الشطط والهوى، وكان ذلك فعل النبوة ومن هم على طريقها تاريخياً، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد:٢٥)، وبالكتاب والميزان يتأسس العدل، وتُحمى الحقوق، وتتحقق وقاية المجتمع من الفساد الناتج عن الظلم وشيوع المظالم في المجالات المتعددة، ذلك أن إشكالية الظلم وما يتولد عنها من الاستبداد والاستعباد والتأله والاغتصاب والإكراه والتسلط والهيمنة وبطر الحق وغمط الناس.... إلخ، كانت ولا تزال الأصل والمحور الأساس للشر، بكل أشكاله، وشقوة الإنسان وإهدار كرامته وإلغاء إنسانيته، لذلك جعل الإسلام المسؤولية عن وقوع المظالم مسؤولية تضامنية شاملة لكل أفراد الأمة؛ لأن آثار الظلم وشروره مركّبة وممتدة، فهي منبع للفتن ومولد لها، وإصاباته سوف تلحق الجميع بحيث لا ينجو أحد منها.

لذلك فعصمة المجتمع وتحصينه ووقايته من الظلم، بكل تمظهره، هي مسؤولية الجميع، يقول تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً...﴾ (الأنفال:٢٥)؛ ووقاية المجتمع من الفتن والاضطراب والفوضى إنما تتحقق باستنفار أفراده جميعاً، كل من موقعه، للمواجهة والاضطلاع بمسؤوليته، سواء في ذلك معالجة أسباب الظلم للوقاية منه، أو الأخذ على يد العابثين الظالمين في المجالات المتعددة، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية، وممارسة الكهانات الدينية، وحماية السفينة (المجتمع) من الخرق والفسوق، الذي يُغرق الجميع ويُهلك الجميع، أو بالتصدي لمعالجة آثاره وتأثيراته، وعدم التوهم بأن النجاة إنما تتحقق بإيثار العافية والانسحاب من الحياة وأنشطتها وعدم ممارسته؛ ذلك أن رذاذه يصيب الجميع، بكل ما يتولد عنه من تداعيات وفتن.

فالفتن المتعاظمة المتولدة عن ممارسة الظلم، وما ينشأ عنها من ردود الأفعال، السوية وغير السوية، من قبل الناس، التي بات يعج بها المجتمع وتكاد تتمركز بعالم المسلمين خاصة لم يعد ينج منها أحد؛ هي فتن لمَّا تقتصر على المتسببين بها والنافخين بكيرها وإنما باتت تعم الجميع، فالبلاء يعم والرحمة تخص، كما يقولون، فهلا تدرك الأمة بعمومها مسؤوليتها التقصيرية، وخاصة الصالحين منها، الذين يشكلون الطائفة القائمة على الحق ويمثلون خميرة العودة بالأمة إلى العدل والنهوض على أساس منهج الكتاب ومعيار الميزان التزاماً

بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ (الحديد:٢٥)؟

فورثة النبوة، حملة علم الدين، أكثر مسؤولية تجاه البيان وتمثل العدل وتجسيده في حياتهم، ونشره بين الناس وفق قيم الكتاب ومعايير الميزان -كما أسلفنا- وتحذيرهم من مخاطر وفتن ممارسته أو الحيدة عنه.

والصلاة والسلام على معلم الناس الخير والحق والعدل، الذي كانت سيرته تجسيداً لاستحقاقات الكتاب والميزان، في تربية أصحابه وبناء مجتمع القدوة، الذي ورث رسالة النبوة التاريخية وأورثها لأمته، لتمضي بحمل رسالة الوسطية والعدالة وإبلاغها للناس وتحذيرهم من الشر والظلم، والوقاية منه؛ الذي بيَّن أن السكوت عن الظلم والقعود عن مواجهته بالقضاء على أسبابه ومعالجة آثاره مؤذن بخراب العمران، بكل أبعاده، الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والبيئية، وسببٌ لانتزاع البركة، واستجلابٌ للعقاب الجماعي، الذي لا ينجو منه أحد، فقال ﷺ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**» (أخرجه الترمذي).

وبعد:

فهذا «**كتاب الأمة**» الرابع والستون بعد المائة: «**الظلم وانعكاساته على الإنسانية.. رؤية شرعية**»، للأستاذ الدكتور عثمان محمد غنيم، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، في سعيها الدائب لإعادة بناء

الإنســان العـدل ومعــاودة إخـراج الأمـة الوسـط في ضـوء هدايات الوحي، في الكتـاب والسـنة، وتجليـات ذلـك في السـيرة النبويـة ومسـيرة خـير القـرون، ومحاولـة إحيـاء المهمـة الرسـالية للأمـة بإقامـة العـدل في ذاتها وحمله وإشاعته في النـاس، وبنـاء الجيـل والـذي يشـكل الحراسـة الأمينـة للمسـيرة ويقـي المجتمـع مـن الإصـابات وينبهـه إلى المخـاطر والمظـالـم، الـتي قـد ينـزع إليهـا بعـض أفراده، فيظلم نفسـه أو يظلـم غـيره، بسـبب الحيـدة عـن منهج النبـوة القـويم وتغلُّـب نزغـات الشيطان، ونمو الغرائز السلبية، التي تؤدي إلى الظلـم والفسـاد وسفك الـدماء: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ (البقـرة: ٣٠)، ذلـك أن الإنسـان مؤهـل لفعـل الخير والعـدل أو الانحـراف والفسـاد والظلـم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشـمس:٧-١٠)، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤).

فقيم الـدين إنمـا شـرعت في الأسـاس لإقامـة الـدنيا علـى مـنهج العـدل واستنقاذ الإنسان، الذي هو في النهاية محل رسالة النبوة، من النزوع إلى الظلم الـمُورث للشقـوة في الدنيا والآخـرة، والسـير به إلى شـاطئ الأمـان، بحيـث لا يظلم ولا يُظلم.

ولعلنـا نقـول: إن إشـكالية الإنسـان تاريخيـاً ومحـور إصـاباته ومصـدر شقـوته كانـت ولا تـزال في غيـاب العـدل وشيوع الظلـم، لـذلك فـإن محوريـة العـدل والظلـم، أو معادلـة العـدل والظلـم، أو جدليـة العـدل والظلـم، رافقـت

مسيرة الإنسان على الزمن، وكانت ولا تزال هي الهاجس للنبوة وورثتها في تاريخها الطويل، ولدعاة الإصلاح وفلاسفة الحياة والحضارات المختلفة في كل زمان ومكان.

فلقد تمحورت جهود النبوة حول معالجة إشكالية الظلم، سواء في ذلك:

معالجة أسبابه بالتربية وتنمية النزوع إلى الخير، والترغيب في الثواب على فعله، ولجم نوازع الظلم والشر، والترهيب من الإقدام عليه، ومسؤولية الإنسان عنه، وبناء القناعة بأن الرقابة الذاتية والطهارة النفسية هي الآثار الأولى للإيمان بالله، ذلك بأن هذا الإيمان يمنح صاحبه الاستناد والاستقواء بالقوة المطلقة، والاستمداد منها القدرة على الصمود وتحقيق العدالة، فالله هو المنتقم الجبار، الذي لا يضيع عنده مثقال الذرة،

أو التشريعات الملزمة والضوابط والمؤيدات من خارج النفس والعقوبات، التي تشكل الجزاء عن فعل الظلم، كما تحقق النكال والتحذير والردع للمجتمع من الوقوع في الظلم، أو السماح به والسكوت عنه، يقول تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة:٣٨)؛ لأن الظلم مهلك للبيئة والعمران والإنسان والسلطان والحرث والنسل -كما أسلفنا- وحتى السنن الطبيعية والأقدار الناظمة لمسيرة الكون تختل بممارسة الظلم، فيُحبس المطر، وتسود المجاعات، وتشتد الفتن، ويعم الاستبداد والاستعباد، وتكثر الحروب، ويتدافع الظلمة، ويعم الفساد كل

جوانب الحياة: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم:٤١).

فالنبوة في المحصلة النهائية، إنما جاءت لإلحاق الرحمة بالإنسان، أيّ إنسان، وتوفير كرامته، وحماية حقوقه، ورفع مظالمه؛ لذلك فتعاليم النبوة هي أشبه بمواثيق الخلاص من الظلم والظالمين، سواء في ذلك تحريم الظلم، وتوعد أهله بأشد العذاب، أو بيان آثاره الفاسدة في الفرد والمجتمع والأمة والحضارة، ودوره في إهدار إنسانية الإنسان، وإعداد وتربية الإنسان الصالح، وإكسابه الصفات الخيِّرة المطلوبة لمقاومة الظلم، من الصبر والاحتساب والتحمل والإعداد والاستعداد، والمجاهدة والأمل في الانتصار على الظلم، واليقين من عقاب الظلمة ومصيرهم الوخيم، وعدم اليأس والقنوط والسقوط والاستسلام أمام سطوة الظالمين وشدة بأسهم، حتى عند افتقاد أي وسيلة للمقاومة في أشد المراحل ضعفاً، مرحلة: «**أضعف الإيمان**»، حيث عندها لا يسقط المؤمن وإنما يحتفظ بالحق والخير والإيمان في قلبه، ويكابد ويجاهد لحماية هذا الإيمان، ويصبر ويعمل حتى تتاح الفرصة لمعاودة الانطلاق واستئناف المهمة في نشر العدل والحق والخير والمساواة والحرية للناس، وإيقاف تسلط الإنسان على الإنسان، والفرار إلى الله، والإيمان به وبقدرته للخلاص من تأله الإنسان على الإنسان، يقول تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ (النحل:١٠٦)، ويقول الرسول، عليه الصلاة والسلام: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا

فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» (أخرجه مسلم).

وهذا الاحتفاظ بالعقيدة والولاء الداخلي للإيمان، من المجاهدة والمعاناة من الازدواجية والمكابدة للظلم، وعدم الرضوخ والاستسلام، والتحضير للفرصة المتاحة لإزاحة الظلم وتوفير الحرية.

وقد يكون من المطلوب أن نوضح هنا أن الإسلام لم يقبل للإنسان حالة الذلّ والعبودية والإكراه وإهدار إنسانيته، كما لم يقبل مسالك التعسف والظلم وقد كرمه الله سبحانه: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، كما لم يقبل للمسلم أن يعيش حالة الاستضعاف والخنوع وقد نعى القرآن سكونية المستضعفين في الأرض واستنهضهم، ولم يقبل معذرتهم وخضوعهم للظلم والجبروت، مهما كان، وقد عرض القرآن لحالهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:٩٧).

وعلى الرغم من أن الظالمين والمتألهين التقت مصالحهم وتحالفوا وضيقوا أرض الله الواسعة وفرضوا الحصار على الخلق، إلا أن الإنسان ومن خلال سنة التدافع الاجتماعي لا يعدم وسيلة للخروج، فالهجرة تاريخياً كانت ولا تزال أداة لمواجهة الظلم، ووسيلة لاستعادة القوة، وسبيلاً للكسب الاقتصادي ومراغمة الأعداء والظالمين، فلقد اعتمدت في مراحل الدعوة الأولى، فكانت الهجرة إلى

الحبشة، أرض الصدق والعدل: «لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ» (ابن كثير، البداية والنهاية)، وكانت الهجرة الكبرى منعطفاً في تاريخ الإنسانية عامة ووسيلة لإقامة المجتمع والدولة الإسلامية في المدينة المنورة، يقول تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (النساء: ١٠٠).

ويبقى مرتكز ذلك كله الإيمان بالله، القوة المطلقة، القادرة على اقتلاع الظلم، والانتقام من أهله، وجزائهم الجزاء الأوفى، وتبصير المظلومين بسبيل الخروج والأمل، الذي يشكل لهم الدرع الواقية، والتيقن من تحقيق العدالة في عاقبة الأمور، إذ لا عبرة بالنتائج السريعة، التي يحرزها الظالم، فالعدالة المطلقة من المنتقم الجبار قادمة حتى لو فاتت العقوبة في الدنيا الفانية، فإن العقاب ينتظرهم في الحياة الباقية.

ورغم أن آيات القرآن جميعاً تتمحور حول معالجة إشكالية العدل والظلم، ابتداءً من تأسيس عقيدة التوحيد، التي تعني المساواة ونسخ الجبابرة والمتألهين، وامتداداً بكل استحقاقاتها في المجالات المختلفة، من أوائل التنزيل حتى خواتيمه، فقد يكون في إثبات هذه الآيات من سورة أبي الأنبياء إبراهيم، عليه السلام، أو هذا المشهد، والبلاغ القرآني، أو هذه اللوحة النابضة بالحياة، نافذة للإطلالة منها وتأملها وتدبرها ووعيها وإبصار رسالة القرآن في بناء العدل ومواجهة الظلم، يقول تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (إبراهيم: ٤٢-٥٢).

لذلك، كانت النبوة وتعاليمها وتربيتها وتشريعاتها ودعوتها واتباعها ثقيلة وثقيلة جداً على الظلمة، من الفراعنة والكبراء وأصحاب السلطان والمتألهين والملأ والفجار والفاسقين والمترفين والقوارين من أصحاب الظلم الاجتماعي والأموال المكتسبة بغير الحق، والكهانات الدينية، التي وظفت الدين للتسلط والتعالي على عباد الله، وكانت المدافعة دائمة بين الحق والباطل، والعدل والظلم، والخير والشر، والنبوة والطواغيت، بكل الوسائل

وعلى الأصعدة والمجالات المختلفة، ولعل ذلك هو ميدان المدافعة الحضارية الحقيقي.

ولم يهدأ ولن يهدأ للظالمين والطغاة والمستبدين والكبراء وجميع المتألهين بال، طالما أن للنبوة وتعاليمها حضوراً في الأمة: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ (القصص:٣٨)، ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات:٢٤)، ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف:٨٢)، لذلك نجد التواطؤ والتشويه والاتهام ومحاولات الاختراق والابتزاز والتآمر: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ (التوبة:١٠)، على النبوة وتعاليمها مستمر: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة:٢١٧)، يستخدمون كل الوسائل والفلسفات، بما في ذلك الصناعات المزيفة من المنافقين، ومحاولة الاختراقات المستمرة لأتباع النبوة، والتشويه والتحريف والمغالاة والتأويل الباطل والجاهل لتعاليمها من داخل الصف، يقول تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران:٧٢).

وليس ذلك فقط، وإنما أيضاً المحاولات المستمرة لاغتيالها من الداخل على يد بعض أهلها أو المندسين فيها، الذين تخصصوا في تشويه حقيقتها، لعزلها عن حياة الناس، وفصلها عن المجتمع والحياة، وعلى أحسن الأحوال إبقائها حبيسة الكهوف والمعابد والمنابر أو الزوايا والتكايا، بعيداً عن نبض الحياة وحركتها وتنظيم مساراتها، أو جعل التدين شأناً فردياً يعيش داخل النفس،

لا علاقة له بتوجيه دفّة المجتمع أو ضبط نظام الحياة، وبذلك يفتح باب للظلم كبير، يدخل منه الكثير من الأرباب والمتألهين والمتسلطين تحت شتى الشعارات والعناوين والفلسفات والمسوغات؛ ولعله بات من المسلمات أن لا إنسان بلا دين، فإذا لم يتجه الوجهة الصحيحة ويؤمن بالله الواحد فسوف يسقط في فخاخ الآلهة المزيفة، مهما اختلفت المسميات، ويبقى الظلم هو الظلم، ومهما كان لون راياته، ولو كانت خادعة إلى حين.

فالظلم هو أصل الشرور كلها، وسوف لا يستقيم أمر الدنيا ويصلح حال الناس إلا بإيقاف المظالم في المجالات المتعددة، واسترداد إنسانية الإنسان، وحماية كرامته، وتوفير حريته، وحفظ حقوقه ومساواته، وهذا لا يتحقق إلا بإيقاف تسلط البشر وتخليص الناس من عبادة العباد إلى عبادة خالق العباد.

ونكاد نقول: إن جدلية الحياة ومدافعاتها جميعاً كانت ولا تزال وستبقى بين الإيمان والكفر، ذلك أن الإيمان بالله الواحد (الوحدانية) أو «لا إله إلا الله» وإبطال الآلهة المزيفة وتأله الإنسان على الإنسان، كان ولا يزال السبيل إلى العدل والمساواة والتحرر وإيقاف الظلم، حيث لا أحد يعلو على أحد ويتميز عليه، الجميع سواء، فالتوحيد أو الوصول إلى حقيقة الوحدانية للخالق والرازق والمحيي والمميت والرحمن والرحيم والمنتقم والجبار، هو جهد النبوة الكبير لإعادة الناس إلى بشريتهم، والارتفاع بهم إلى خالق

السموات والأرض، الذي حرم الظلم على نفسه، وجعله بين الناس محرماً، فهو الحكَم العدل.

فالإيمان بيوم الدين، يوم الحساب، يوم الجزاء، يوم الإدانة للمجرمين الظالمين والثواب والجزاء لأهل العدل والحق والخير هو في الحقيقة إيمان بيوم العدالة المطلقة، التي لا تغيب عنها الحقيقة، لذلك نعاود القول: إن الإيمان بالنبوة وعطائها هو الدرع الواقية من اليأس والسقوط أمام الظلم والظالمين، وهو وقود المقاومة والمغالبة والرفض والإباء والإيمان بمواعيد الله أن العاقبة والوراثة الحضارية للمستضعفين والمظلومين، يقول تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ (القصص:٥-٦).

ولقد عرض الوحي مشاهد ومقاربات ونماذج تكاد تكون حية وناطقة ومتحركة أمام الناس في الدنيا لمصارع الظالمين ومهانتهم.

لذلك كله رأى كثير من فقهاء الإسلام وأئمته وحملة رسالته أن مشروعية الجهاد في الإسلام لم تكن أبداً لإجبار الناس على الدخول في الإسلام، حيث ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦)،﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ (الكافرون:٦)، وإنما كانت لمواجهة الظلم والعدوان والإكراه والاغتصاب والاستعباد، والتحرير، ونسخ الآلهة المزيفة المتحكمة، والحيلولة دون الفتنة: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ (الأنفال:٣٩)، وتحقيق حرية

الاختيار، واسترداد إنسانية الإنسان، لدرجة جعل المسؤولية عن مواجهة الاغتصاب والإكراه والظلم مسؤولية جماعية تضامنية، وأن الآثار الخطيرة المترتبة على الظلم لا تقتصر على الظلمة، وإنما تطال الجميع؛ لأنهم تخلوا عن مسؤوليتهم في مواجهة الظلم، فهم مسؤولون مسؤولية تقصيرية، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ (الأنفال:٢٥)؛ واتقاء الفتنة التي شبهها الرسول ﷺ بالليل المظلم، الذي تضل فيه الرؤية ويلتبس الحق بالباطل وتهتز القيم ويصبح الحليم حيراناً، وبيَّن لنا المخرج منها، إنما يكون بالمبادرة بالعمل الإيجابي والجهاد لمقارعة الظلمة وإنهاء الظلم وما يترتب عليه.

يقول ﷺ : «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**» (أخرجه مسلم).

إن السماح للظلم بالامتداد مجلبةٌ لسخط الله، وعصيان لشرعه، وقد جعل، عليه الصلاة والسلام، مقارعة الظلم من أعظم الجهاد، فقال: «**إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**» (أخرجه الترمذي)، وجعل من يدفع روحه ثمناً لمقاومة الظلم يتبوأ مرتبة عالية من مقام الشهادة، ويأتي بعد سيد الشهداء، يقول الرسول، عليه السلام: «**سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فَقَتَلَهُ**» (مسند أبي حنيفة).

لذلك نؤكد القول هنا: إن النبوة تمحورت، بمختلف تعاليمها، حول مقارعة الظلم ومعالجة أسبابه، وإن تربية النبوة وتشريعاتها جميعاً قصدت إلى تأسيس منهج العدل بالتربية (الكتاب) وبالتشريع (الميزان) ليقوم الناس بالقسط: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد:٢٥).

لذلك نرى أنه طالما أن بؤر الظلم مستمرة فردود الفعل الغاضبة والمتجاوزة الحد والحق سوف تبقى مستمرة أيضاً، ويعالج الانحراف بانحرافٍ مماثل، فالإدانة والشجب والقمع لم يشكل علاجاً، وإنما السبيل إلى العلاج والوقاية هو إشاعة العدل والمزيد من الحرية.

فالعدوان، واحتلال الأرض، والعبث بالعرض، والتهجير، والتصفية العرقية، واستمرار استنزاف الثروات، والاستئثار بها وسرقة الخبرات، ومساندة أنظمة الاستبداد السياسي والدكتاتوريات، تحت شتى المعاذير، والعبث بالمناهج التعليمية وتطويعها واستخدامها لزرع حواس الخنوع والذل، وحذف الكثير من نصوص الوحي النبوي، التي تدعو للمجاهدة، باسم تخفيف المنابع، وتحويل عالم المسلمين إلى مخافر أمنية، واحتلال إعلامه، وإقصاء شعوبه عن مراكز القرار، وتحدي عقيدته، واستلاب ثقافته، واتهامه بالتوحش والرجعية، والسكوت عن إرهاب الدول وإقامة الكيانات العنصرية والطائفية والمذهبية، التي تمارس التمييز بكل أشكاله، وتطارد خصومها، وتحرمهم من ممارسة أبسط حقوقهم وعباداتهم وإقامة معابدهم، وغير ذلك كثير من الأسباب هي

المقـدمات، الـتي تشـكل أسـباباً للعنـف والتطـرف والإرهـاب والتشـدد وردود الأفعال الشاذة في كثير من الأحيان؛ لأن شريعة القوة والقهر والإفقار والحرمان تستدعي اللجوء إلى القوة بالضرورة والممارسات اليائسة، التي قد تتجاوز كل عقل وشرع.

وقد يكون الأخطر من ذلك كله التعميم في الأحكام، أو العامية وعمى الألوان، وقيام بعض المتعصبين والحاقدين من الفلاسفة والكُتّاب والإعلاميين والسياسيين باتهام الإسلام بتفريخ الإرهاب، والمساواة بين الإرهاب والإسلام، بحيث أصبحوا يكادون يطلقون مصطلح (الإرهاب) على كل مسلم وأية جماعة، حتى ولو كانت ذات تاريخ واضح وملموس في تحقيق السلم الاجتماعي والعمل الخيري، ويستخدمونه بالحق وبالباطل للقضاء على الروح الإسلامية الواعية وترك عالم المسلمين لتحكم الآخرين، فالاتهام بدعم ومساندة الإرهاب وتشجيع الإرهاب أصبحت هي السيوف المسلطة على رقاب المسلمين، وكثيراً ما تحول هذه الظواهر في المحصلة النهائية لتستخدم في تصفية الحسابات الإقليمية والدولية، فتذهب إلى المعارك الخطأ؛ ويأتي الحل الأمني البعيد عن دراسة الأسباب الحقيقية، ليؤكد روح العداوة، التي تزيد في حجم التشدد والمغالاة، بدافع حماية (الذات).

ولعل بعض التشريعات القانونية ومناهج التربية الوضعية، بطبيعتها، مشبعة بتوجهات واضعيها، فهي محملة بالتحيز وتحقيق مصالح المتسلطين سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، حتى أصبحت تلك التشريعات الوضعية كنسيج

العنكبوت، الذي لا يلتقط إلا الحشرات الضعيفة، أما الهوام والحشرات القوية، فتمزقه وتتجاوزه، فبدل أن تحقق هذه التشريعات العدل، الذي شُرعت من أجله، أصبحت وسيلة للتسلط وتكريس الهيمنة أو الظلم.

فالعدل الكامل سوف لا يتحقق إلا بتشريع بريء من التحيز والأهواء، لذلك فشريعة الله، خالق الناس جميعاً، العالم بما يصلحهم ويحقق سعادتهم ويكفل مساواتهم، تتأبى عن التحيز والتمييز والظلم مهما حاول الظلمة دمغها والتنفير منها باصطناع كهانات دينية تمارس الظلم والاستغلال والابتزاز، والتقاط الصور المشوَّهة لبعض المتدينين أو لطبقاتٍ دينية حاولت احتكار فهم الدين، تاريخياً، والتحدث باسمه واستغلال الناس وظلمهم تحت شعارات العدل والحق والإيمان وبيع الخلاص وضمان الغفران في الآخرة مقابل ابتزاز مالي، حيث لم يقتصر التسلط عندها على دنيا الناس بل امتد للتحكم بآخرتهم أيضاً، وهو أعتى أنواع الظلم.

وهنا قضية قد يكون من الضروري لفت النظر إليها والتفكر فيها، وهي أن شريعة الله عدل كلها، ورحمة كلها، وحيثما وُجد العدل وانتفى الظلم فثم شرع الله، إلا أن الإشكالية، كل الإشكالية، قد تكون التعسف في التطبيق وإنزال أحكام الشريعة على واقع الناس، بلا فقه وبصيرة، وعدم النظر إلى مدى استطاعتهم وتوفر شروط التكليف، والمجازفة أحياناً بإسقاطها على واقعٍ فاقد للشروط المطلوب توفرها حتى يتحقق التكليف، حيث لا تكليف بدون استطاعة، وبذلك يتحول التعسف في التطبيق بالشريعة من العدل إلى الظلم،

ومن الرحمة إلى العنت، ومن اللين واليسر إلى الشدة والعسر؛ لذلك فغلبة الحماس وغياب الإدراك عادة قد تؤدي إلى هذا الالتباس، فيصبح الادعاء بتطبيق شريعة الله لتحقيق العدل ونفي الظلم منفر وموقع في الظلم، وتضلّ أعمالنا ونحن نظن أننا نحسن صنعاً، ولعل هذا من حالات الإيمان الملتبسة بظلم، المحتاجة إلى كثير من المراجعة والتدقيق والفقه، وكثيراً ما نتهرب من المراجعة والتقويم تحت ذريعة حسن النية وأن الناس يُبعثون على نياتهم، وقد حذر الله من هذا الالتباس بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ (الأنعام:٨٢).

وتكاد قولة ابن القيم تلخص الأمر كله، يقول، رحمه الله: «الشَّرِيعَةَ مَبْنَاهَا وَأَسَاسُهَا عَلَى الْحِكَمِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَهِيَ عَدْلٌ كُلُّهَا، وَرَحْمَةٌ كُلُّهَا، وَمَصَالِحُ كُلُّهَا، وَحِكْمَةٌ كُلُّهَا؛ فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ خَرَجَتْ عَنْ الْعَدْلِ إلَى الْجَوْرِ، وَعَنْ الرَّحْمَةِ إلَى ضِدِّهَا، وَعَنْ الْمَصْلَحَةِ إلَى الْمَفْسَدَةِ، وَعَنْ الْحِكْمَةِ إلَى الْعَبَثِ؛ فَلَيْسَتْ مِنْ الشَّرِيعَةِ وَإِنْ أُدْخِلَتْ فِيهَا بِالتَّأْوِيلِ؛ فَالشَّرِيعَةُ عَدْلُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَرَحْمَتُهُ بَيْنَ خَلْقِهِ... » (إعلام الموقعين).

ويقول أيضاً: «إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ، لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ. فَإِذَا ظَهَرَتْ أَمَارَاتُ الْعَدْلِ وَأَسْفَرَ وَجْهُهُ بِأَيْ طَرِيقٍ كَانَ، فَثَمَّ شَرْعُ اللَّهِ وَدِينُهُ، وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ، وَأَعْدَلُ أَنْ يَخُصَّ طُرُقَ الْعَدْلِ وَأَمَارَاتِهِ وَأَعْلامَهُ بِشَيْءٍ، ثُمَّ يَنْفِي مَا هُوَ أَظْهَرُ مِنْهَا وَأَقْوَى دَلالَةً، وَأَبْيَنُ أَمَارَةً» (الطرق الحكمية).

لذلك نعاود التأكيد هنا على أهمية التفريق بين قيم الدين، التي تؤسس للعدل والحرية ونسخ الظلم والاستبداد والاستعباد وتحقيق المساواة بين الناس، وبين صور التدين ومسالك بعض المتدينين، ومحاولة فك الالتباس بين (الذات) والقيمة، بين الصورة والحقيقة، وأن قيم الدين ليست قنطرة تُستغل لممارسة الظلم والتعسف بدل نشر الرحمة والعدل والاستقامة وتحقيق الخلاص من الظلم وتسلط الإنسان على الإنسان.

ولما كانت إشكالية الظلم والعدل هي الهاجس الدائم والمؤرق لمسيرة البشرية ومحل علاج لتعاليم الوحي وتكاليف أولي العزم من الرسل كان من الطبيعي والمنطقي، بعد هذه المسيرة البشرية الطويلة، أن يتمحض الدور الرسالي للنبوة الخاتمة حول تأسيس العدل وتأصيله بين الناس، حتى مع الخصوم والأعداء وغير المسلمين والناس جميعاً في مجتمعات المسلمين، على مستوى الأفراد والمجتمع والدولة، حيث شعار المسلمين الكبير: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، والإكراه والغصب والمصادرة والإجبار هو أعتى أنواع الظلم، على مستوى العقيدة، أما على مستوى التعامل فميثاق المسلم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ (المائدة:٨)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ (النحل:٩٠)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ (النساء:٥٨)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ (الأنعام:١٥٢).

وأكثر من ذلك، فقد يقتضي الإيمان والالتزام بقيم العدل وتجنب الظلم الوقوف إلى جانب الكافر إن كان صاحب حق مقابل المسلم إذا كان ظالماً، يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ (النساء:١٠٧)، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء:١٠٥)، وقصة أسباب النزل توضح الأبعاد والدلالات المهمة لهذه النصوص والغائبة عن كثير من مسلمي اليوم.

هذه خصيصة الأمة الوسط، ورسالتها الإنسانية، وهذا هو قدوتها ومثلها الأعلى ﷺ الذي سنّ لنا أن ندور مع الحق حيثما دار، وندفع الظلم حيثما كان؛ وهذه هي ثمرة الجَعْل الإلهي والمهمة الأساس لأمة الرسالة الخاتمة، إنه التحقق بالعدل، وحمله إلى الإنسان، ومواجهة الظلم، والقيام بدور الشهود الحضاري، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا (عدلاً) لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، فاستحقاق الشهادة على الناس يتطلب تحقيق العدل في (الذات)، الذي يؤهل لحمله وتحقيقه بين الناس وإغرائهم به.

لذلك، فأمة الرسالة الخاتمة، ووريثة النبوة، النبوة التي تمحورت رسالتها تاريخياً حول إشكالية العدل والظلم، هي التي ناط الله بها الشهادة على الناس، بإبلاغهم منهج العدل والشهادة على مدى استجابتهم له أو خروجهم عليه.

فهي تشهد على مسيرة الأمم التاريخية، وتصوّب الرؤى الدينية وما لحق بالتدين من علل، وتبيِّن الانحراف والتحريف، يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ

ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨)، فالهيمنة هي الرقابة وتبيان مواطن الانحراف؛ وتشهد على حاضر العالم بإبلاغه رسالة الحق والعدل، وتبيِّن مواقع مجافاته لشرع الله وتعاليم النبوة، وتحذر من مخاطر ذلك: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:١٢٢)؛ وتشهد على سلامة التوجه صوب المستقبل ببيان طريقه الآمن وكيفية اجتيازه بتوازن واعتدال؛ وتشهد على الناس يوم الدين، يوم الإدانة والدينونة والحساب ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ (غافر:٥١)، بأنها أبلغتهم رسالة الوحي وتعاليم النبوة، في الحياة الدنيا، وحذرتهم من الجنوح عن طريق الحق والعدل، وبذلك تكون شهادتها بالحق والعدل سبيلاً لنجاةٍ ونعيمٍ من التزم العدل ونأى بنفسه عن الظلم، كما تكون بالمقابل سبيلاً للهلاك لمن تنكب طريق النبوة واستهان ببيانها وبلاغها وظلم ورثتها.

ولعل من أولى صفات وخصائص الشاهد أن يكون عدلاً بذاته، يفقه العدل ويبيِّنه، ويشهد به، وبشهادته العادلة تلك يقضي بين الناس، وبذلك يثبت الحق وينتفي الظلم وتُسترد الحقوق، فهل تتحقق الأمة المسلمة، وريثة النبوة، اليوم بالعدل المتأتي من تعاليم النبوة، الذي يؤهلها للشهود الحضاري؟ وهل تفكر باسترداد دورها الإنساني، وتتأهل لتعيد قراءة العالم من حولها، وقراءة رسالتها، وتحديد موقعها في هذا العالم وكيفية التعامل معه وفق منهج الوحي، القرآن، ومعياره الميزان، ذلك أن فاقد الشيء لا يعطيه؟

إن الحاجة اليوم إلى مراجعة الواقع الإسلامي البئيس، بمختلف جوانبه وشرائحه وممارساته، ومدى حمله لرسالة العدل، والتفكير الجاد بتصويب مساره وإدراكه واستجابته للحَجْل الإلهي واستئناف دوره في الشهود الحضاري أصبحت من مقومات الاستمرار للوجود الرسالي والإنسانية السعيدة، والحيلولة دون أمراض وعلل التقطيع في الأرض والتعرض للاستبدال، مصداقاً لتحذيره تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ (الأعراف:١٦٨)، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ (محمد:٣٨).

فهل يحسن الصالحون، الذين يمثلون الطائفة القائمة على الحق، التي لا يضرها من خالفها، التحرك وامتلاك الوسائل الصحيحة ليشكلوا خميرة النهوض فيحققوا مزيداً من العدل في أنفسهم أولاً، ليتأهلوا للشهادة على الناس ويقفوا سداً في وجه الظلم والظالمين؟

إن التمحور المؤسف لمعظم العاملين للإسلام اليوم حول بعض المفهومات، من استحقاقات عقيدة التوحيد، وتركيز الحديث عن الحاكمية فقط، واستنفاد الجهود في المغالبة على السلطة، والتهاون في سبيل ذلك ببعض الأحكام والآداب والقيم الشرعية، وأحياناً انتهاكها والسقوط في مقولة: «الغاية تبرر الوسيلة»، أو السكوت عن انتهاك الحقوق والحرمات والمناصحة، في سبيل التجميع وبناء الزعامات الفاشلة هو اختزال وتخل عن المهمة الأساس وإساءة للمعنى الكبير والشامل لعقيدة التوحيد، التي تعني أول ما تعني تحقيق

المساواة بين الناس، والتحقق بالعدل في السلوك والتعامل مع (الآخر)، وتوفير حرية الاختيار، وحفظ كرامة وحقوق الإنسان.

لقد أدى غياب العدل والنكوص عن مهمة الجَعْل الإلهي: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، في بعض فترات التاريخ الإسلامي، وذلك عندما انفصل السلطان عن القرآن ونُقضت عروة الحكم، أول العُرا، نقضاً، إلى فقدان مقومات النصر والتمكين، وتحول النصر والاستقرار اليوم ليصبح من نصيب الدولة العادلة ولو كانت كافرة، والوهن والهزيمة والسقوط الحضاري للدولة الظالمة ولو كانت ترفع شعار الإيمان دون الالتزام بشعائره.

وقد يكون من الأهمية بمكان الإشارة إلى الإدراك المبكر للإمام ابن تيمية، رحمه الله، لهذه السنة الاجتماعية، حيث يقول: «إِنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي: أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ وَخِيمَةٌ وَعَاقِبَةُ الْعَدْلِ كَرِيمَةٌ، وَلِهَذَا يُرْوَى: «اللَّهُ يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً» (مجموع الفتاوى، رسالة في الحسبة)، رغم أن ذلك أمر افتراضي، فالظلم يتنافى في الأصل مع الإيمان الصحيح، أما الإيمان عملياً فقد يلتبس بظلم، وقد بينه الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام:٨٢).

من هنا ندرك الحكمة الإلهية العظيمة والمقاصد الشرعية الكبرى من إيراد هذه المساحة التعبيرية الكبيرة في الكتاب والسنة، والتأكيد والتفصيل

في مشاهد مَصَارع الظالمين ونهاياتهم الفظيعة، التي تكاد تكون ناطقة وبمختلف الأساليب والقوالب التعبيرية، التي عالجت إشكالية الظلم، سواء في ذلك:

ذكر الصفات السلبية في الإنسان وأهمية التنبه إليها: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم:٣٤)، وكيفية التعامل معها من خلال بناء الإيمان، وحسن تربية النفس، وقوة الإرادة وإحكام الرقابة الذاتية، وإيقاظ الوازع الداخلي، والتحذير من المخاطر المترتبة من السكوت على الظلم، والإيمان بعدم التفلت من عقابيله، والمسؤولية عنه أمام الله، حتى ولو لم يُعجِّل الله العقوبة في الدنيا،

أو ممارسة الظلم والتسلط والإكراه والهيمنة والإلغاء وهدر الكرامة وأكل الحقوق والأموال وإشباع نزعات العدوان، وكيفيات التعامل معها من خلال العقوبات الرادعة والتشريعات الملزمة للحيلولة دون الظلم وامتداده.

لذلك فقد لا يكون مستغرباً التأكيد على مخاطر الظلم وحرمة أكل الحقوق، وأهمية تحقيق العدل وحماية الحقوق، وعدم الظلم، هي المعاني والقيم الكبرى، التي نبّه إليها الرسول ﷺ في خطبة حجة الوداع، حيث وصية المودع لأمته، الذي توقع فيها أن لا يلقاهم بعد عامه ذلك، وعادة ما يتوقف المودِّع عند المعاني الأساسية، التي بها قوام الأمة وركيزة حياتها والتي يخاف إهمالها أو عدم تقديرها حق قدرها في الأمة، فتكون سبباً في السقوط والانقراض:

يقول الصادق المصدوق ﷺ في خطبة الوداع: «...إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ... وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَسَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلا فَلا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلالاً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» (أخرجه البخاري)، «أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى» (أخرجه الإمام أحمد).

إنها شهادة الرسول ﷺ على الأمة وتربيته لها على الوسطية والاعتدال لتكون شهيدة على الناس: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣).

وبعد:

فهذا الكتاب، يأتي في الوقت المناسب، ذلك أن براكين الظلم الكامنة والتي تتكرس من وقت بعيد، وتداعياته، باتت تتفجر في كل مكان تقريباً، وحممها تكاد تحرق الجميع، وفتنها ونارها لا تقتصر على من أوقدها وإنما تمتد لتطال حتى الأبرياء أيضاً، وذلك بسبب تفريطهم وقعودهم عن الاضطلاع بمسؤوليتهم أو عجزهم المزمن، الذي حوّلهم وقوداً لنار الظلم وامتداده، والله يقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ...﴾ (الأنفال:٢٥).

إن الخلل والاضطراب والعنف والتشدد والتطرف والإرهاب وكل هذه الظواهر، التي تطفو على سطح العالم اليوم هي في الحقيقة أعراض للمرض

الأساس، الذي لا يريد أن يعترف به أحد، هي آثار وجراحات وإفرازات واندفاعات وردود أفعال للمرض الرئيس الكامن وراء إنشائها وإفرازها، إنه الظلم وغياب العدل، الظلم السياسي المتولد عن الاستعمار واستبداد أنظمة ما بعد الاستعمار، والدكتاتورية والاستئثار بالسلطة، والظلم الاجتماعي، والاستئثار بالثروة، والاستلاب الثقافي، والهيمنة الفكرية والإعلامية، وفرض الأنماط والعادات والأفكار والأنساق المغايرة لثقافة الأمم، والتحدي الحضاري.

إن إشكالية الظلم إشكالية مركبة، ذات أكثر من بعد، لذلك فشلت الحلول بسبب النظر إليها من بعد واحد، فالظلم والمظلومية التاريخية قد تصل بالمظلوم إلى حالات اليأس من الإصلاح والصلاح، وقد لا يجد المظلوم أمامه إلا رد الفعل، دون التدبر بعواقبه، خاصة عندما تتساوى في نظره الحياة والموت؛ لأنه في حالة موتٍ وذلٍّ وسلب حقوقٍ وهدر كرامةٍ، حيث لا يبقى أمامه ما يخشى عليه، لا يبقى إلا الثأر؛ والثأر والانتقام والحقد أعمى لا يبصر، ولعنة الفتنة لا تقتصر على من تسبب فيها ولا من أيقظها، وإنما تعم الجميع.

إن الشكوى من التعصب والتشدد والعنف والإرهاب، تتطلب البحث عن الأسباب الكامنة وراء ذلك، فقد يكون على مخاطره ومساوئه وفظائعه نتيجة طبيعية لما يقبع وراءه من الظلم، وسوف تبقى إشكالية غياب العدل والنزوع إلى الحرية والعدل ومقارعة الظلم مستمرة، تخبو وتظهر كحال البراكين،

تؤرق العالم، وتعبث بأمنه، وتأكل طاقاته المادية والبشرية، وتهدد أمنه وسلامه طالما استمر الظلم بمجالاته المتعددة، وطالما أننا نقتصر على معالجة الآثار الناتجة عنه بالقوة والبطش والقوانين والتشريعات والحلول الأمنية، أو بمعنى أوضح طالما أننا نعالج آثاره بالقوة، التي تؤدي إلى تعاظم الظلم بتكريس الظلم، وطالما أننا ما نزال نلقي القبض على المظلوم، ذلك أن الشجب والإدانة واستخدام وسيلة القوة والقمع في المعالجة والمزيد من القهر والظلم سوف يزيد من نار المواجهة، ويدفع المظلوم للجوء إلى المحاولات اليائسة لمواجهة القوة بالقوة والقهر بالقهر.

ونحن بهذا لا نسوغ التشدد والتطرف والإرهاب، مهما كانت مسبباته، ولا نقر العنف والتشدد والتعصب والغلو، وإنما نحاول أن نضع أيدينا على مكمن الداء، حتى نتمكن من وصف الدواء، كما لا نقلل من أهمية معالجة الآثار بالوسائل الأمنية، وحماية المجتمع، وإن كان ذلك يبقى حلاً مؤقتاً لا يجوز أن يحول بيننا وبين التفتيش عن الحلول الناجعة والمستدامة.

وقد يكون من المؤسف والمؤلم أن المؤسسات الدولية، التي أنشئت من أجل تأسيس العدل والأمن ومواجهة الظالمين والمجرمين والمعتدين تحولت إلى وسيلة بيد الأقوياء لممارسة مزيد من الظلم والتخويف والتعسف والانحياز وازدواج المعايير في استعمال القوانين، وذلك بخضوعها لرغبات دول الهيمنة ومصالحها وليس للمعاني والقيم الإنسانية.

وقد يكون الأمر الملفت والمريب معاً أن هذه الاندفاعات البركانية تبدو وكأنها مستوطنة في عالم المسلمين دون سواه، فهل سبب ذلك الحقد العداوة التاريخية لهذا الدين: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ (البقرة:٢١٧)؟ ونحن بهذا لا نريد أن نلقي بالتبعة على الآخرين لإعفاء (الذات) من التقصير والحيلولة دون المراجعة، وبيان أننا مسؤولون وأن الذي يلحق بنا إنما هو من عند أنفسنا، في المحصلة النهائية.

والمفارقة العجيبة أن معظم الذين يدعون أنهم يتصدون لمعالجة ظواهر الظلم هم من الذين يمارسون الظلم تاريخياً، فكيف نتصور أن يكون الخصم هو الحكم، والشاعر يقول:

«فيك الخصام وأنت الخصم والحكم»؟

والله غالب على أمره.

مقدمـة

الحمـد لله رب العـالمين، والصـلاة والسـلام علـى سـيد الخلـق والمرسـلين، وعلى آله وصحبه، ومن سار على هديه إلى يوم الدين، وبعد،

فقـد تبين لي من خـلال متـابعتي للكتـب الإسـلامية التراثية، ولكثير من الدراسات الإسلامية المعاصرة، أهمية إفراد كتاب يتناول الظلـم بمفهومه الشرعي وانعكاسـات هـذا المفهـوم الواسـع على جوانـب الحيـاة المتنوعـة علـى مسـتوى الأفراد وعلى مستوى المجتمع والدول، فمكتبتنـا العربيـة الإسلامية بحاجة إلى كتاب ينفرد بدراسة وعرض موضوع الظلم بجوانبه المختلفة من منظور شرعي، لأهمية ذلك على صعيد العلم والحياة.

وقـد اتضـح لي أن معظـم مـا كتـب في هـذا الموضـوع لا يخـرج عـن كونـه شـذرات أو جزئيات أو فصولاً مختصرة مبعثرة ومتناثرة في بطون بعض الكتب والمجلات الإسلامية التراثية والمعاصرة، أو موجودة في الخطب والفتاوي والدروس والمحاضرات الدينية في عديد من المواقع الإلكترونية على شبكة الإنترنت، وقد وجـدت أن تعمـيم الفائـدة يقتضـي ضـرورة جمـع أكـبر قـدْر ممـا كُتـب عـن هـذا الموضـوع من هـذه المصـادر، في كتـاب مسـتقل، فيتنـاول الموضـوع ويعرضـه مـن معظم جوانبه بصورة جذابة وسـهلة وميسرة، تسـهّل على القارئ فهـم الموضوع بأبعاده وجوانبه المختلفة وإدراك مدى خطورته على الناس والحياة.

لا شك أن الظلم آفة اجتماعية، ومرض عضال معدٍ سرعان ما ينتقل عبر قنوات العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع، فاتكاً بها وعاملاً على تشويهها، وإذا ما دمرت شبكة العلاقات الاجتماعية في أي مجتمع فإنه يكون قد انتهى وتلاشى حتى وإن كان موجوداً ظاهرياً، لذلك كان لا بد من تشخيص هذا المرض وعــلاجه، ولكي نتمكن من ذلك لا بد من تسليـــط الضوء عليه، في محاولة لدراسته وتحليله، على أمل أن يستفاد من ذلك في إحياء النموذج الإصلاحي الإسلامي وتفعيله على أرض الواقع في جوانب الحياة المختلفة، وهو النموذج الذي صلح به أمر الأمة في أول عهدها، ورحم الله تعالى الشاعر أبا العتاهية حين قال [1]:

تَكَــدَّرَ مِــنْ بَعْــدِ النَّــبِيِّ مُحَمَّــدٍ　　عَلَيْهِ سَلامُ اللَّهِ مَا كَانَ صَافِيَا
رَكَنَّــا إِلَى الــدُّنْيَا الدَّنِيَّــةِ بَعْــدَهُ　　وَكَشَّفَتِ الطَّمَاعُ مِنَّا الْمَسَاوِيَا
فَكَـمْ مِـنْ مَنَـارٍ كَـانَ أَوْضَـحَهُ لَنَـا　　وَمِنْ عِلْمٍ أَضْحَى وَأَصْبَحَ عَافِيَا
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى　　تَقَلَّـبَ عُرْيَانًـا وَإِنْ كَـانَ كَاسِـيَا
وخَـيرُ خصـالَ المـرءِ طاعـةُ ربِّـه　　ولا خـيرَ فـيمن كـان للهِ عاصِـيا

إن تعرّف الظلم بحيثياته وتفاصيله من منظور شرعي من أعظم الأمور نفعاً، وأكثرها فائدة للفرد والجماعة والمجتمع، وبالذات في وقتنا الحاضر حيث استفحل ظلم العباد لأنفسهم بارتكابهم المعاصي، ما صغر منها أو كبر، وظلم

---

(١) ابن رجــب الحنبلي، لطــائف المعــارف في ما لمواسم العلم من الوظائف (القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٢م) ص١٥٦.

(الآخر) بغصب حقه وماله، أو اغتيابه واغتيال شخصه، وكذلك الشرك بالله تعالى وهو الظلم الأكبر، فهذه المعرفة لا بد أن تساهم بالضرورة في أن يستقيم أمر الدين والدنيا، وينتظم بذلك صلاح الأولى والآخرة، عبادة وسعادة.

ولما كان الظلم هو الطريق إلى استعباد الناس وغصب أموالهم وهدر وامتهان كرامتهم، وسحق الشعوب وإفقارها، وتكريس ثقافة الانحلال والميوعة، ومَأْسَسَة الفساد، وبناء مجتمعات الرذيلة والفجور، وتدمير منظومة القيم، ومحاربة الدين، وتبخيس العلم والعلماء، وتعزيز دور الكهنوت وأئمة الضلال، وإغلاق أبواب الأمل بالعيش الكريم في وجه الناس، وغضّ الطرف عن فساد المترفين، وتسلّط المتكبرين وقرصنتهم، فإنه بهذه المعاني أضحى في مجتمعاتنا نمط من الحياة، يُضطر الإنسان معه إلى أن يُفني سني عمره في محاولة دفع الظلم بصوره وأشكاله عن نفسه وأهله.

لقد كان لي قبل أن أخط هذه الكلمات - مثل كثير من عباد الله - وقفات ومواقف مع الظلم بألوانه وصوره المختلفة في ميادين الحياة ومحطاتها، مواقف اكتويت فيها بنار الظلم، وتجرعت مرارته، فأورثتني هذه المواقف إحساساً مريراً بالظلم، وتحسساً مزمناً من الظلمة والظالمين، وأشياعهم وأتباعهم، ولكني رغم ذلك، وقبل أن أكيل لهؤلاء الظلمة التهم، أو أشير إليهم بأصابع الاتهام، التمست لهم عذر الجهل بهذه الآفة وأبعادها وآثارها ومدى خطورتها على الحياة، فكثير من البشر يمارس الظلم على نفسه، وعلى الآخر بصور وأشكال مختلفة دون أن يعي ذلك، ودون أن يعلم خطورة ما اقترفت

يداه، على الأقل من منظور شرعي، وكثير من الناس يشاهد الظلم، ويسكت عنه دون أن يعلم حرمة ذلك وخطورته، وبعض البشر يناصر الظلمة ويركن إليهم طمعاً في دنيا يصيبها، أو مصلحة يقتنصها، وأيضاً دون أن يدرك خطورة فعله وسلوكه، ودون أن يعلم حرمة ذلك.

إن جهل كثير من الناس بتعاليم الشرع الحنيف، وبالذات فيما يتعلق بالمعاملات، إلى جانب ضعف الوازع الديني، كانت وما زالت من أهم الأسباب التي أدت إلى استشراء آفة الظلم في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة، فغصب حقوق الآخرين، أو مشاهدة ذلك والسكوت عنه، أو مناصرة المغتصب في فعله وتأييده في ذلك، كلّها آفات لا تقل خطورة عن بعضها، وهي جميعاً تقع ضمن دائرة المحظور والمحرّم من الناحية الشرعية.

وإذا كان الظلم الحاصل يعزى إلى الجهل أحياناً فإنه من اليسير التماس العذر لصاحبه، أما عندما يعلم الظالم بحرمة فعله وسلوكه، ويصرّ على ممارسته تكبراً وتجبراً، فإن ظلمه لا عذر له ولا يشفع له، لأنه ظلم المتكبرين على عباد الله والمغترين بإقبال الدنيا، أيها الظالـــم، «لا تُخْدَعَن كما خُدع مَن قبلك، فإن الذي أصبحت فيه من النعم، إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك، فلو بقيت الدنيا للعالم لم تصر للجاهل، ولو بقيت للأول لم تنتقل إلى الآخر»[1].

---

(١) فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩م) ص٧١.

إن حجم الظلم ونوعه الذي سيلحق بالإنسان سيكون بالضرورة ظلماً كبيراً وقاسياً، عندما يكون متعلماً مثقفاً في بيئة من الجهلة والرعاع، وعندما يكون شجاعاً في محيط من الجبناء، وصادقاً بين زمرة من الكذابين والمحتالين والمدلسين، وهذا ما يحدث في مجتمعاتنا المعاصرة، التي ابتعدت في كثير من شؤون حياتها عن منهج الله تعالى، فساد فيها الجهل بتعاليم الدين وأحكام الشريعة، وغيّبت فيها القيم والأخلاق، وبصورة تجعلنا نشارك الكواكبي في مناشدته أمة الإسلام: «أن لا يغركم دين لا تعملون به، وإن كان خير دين، ولا تغرنكم أنفسكم بأنكم أمة خير أو خير أمة وأنتم أنتم المتواكلون المقتصرون على شعار: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ونعم الشعار شعار المؤمنين، ولكن أين هم؟ إني لا أرى أمامي أمة تعرف حقاً معنى: «لا إله إلا الله»، بل أرى أمة خبلتها عبادة الظالمين»[1].

ما أصعب أن تصادر حقوقك، أو أن يمارس عليك الإقصاء والتهميش لأسباب خارجة عن إرادتك، وما أسوأ أن يغتال شخصك وشخصيتك تبّاع الهوى من العبيد والتافهين والمنحرفين والسوقة والجهلة والبلاطجة، وما أبشع أن يمارس عليك أي شكل من أشكال الظلم، لا لشيء وإنما لأنك تحاول أن تكون صادقاً وموضوعياً في كل المواقف، لأنك تحاول أن تصون إنسانيتك من الهدر، فتبعدها عن مضارب الهوى والأنانية وتضخيم الذات وإلغاء الآخر...لأنك ببساطة تحاول أن تكون إنساناً، بكل ما في الكلمة من معنى.

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد (بيروت: دار النفائس، ٢٠٠٣م) ص١٥٦.

لا شك أن الكثير منا ذاق طعم الظلم ووقع عليه بعضه، وكان عليه أن يتقبله، لا استسلاماً وضعفاً، وإنما انسجاماً وتماشياً مع الواقع واعترافاً به، هذا الواقع المرير الذي يمتلئ بأشكال الظلم وصوره البشعة، التي تُعدّ أساساً يمكن أن ننطلق من خلاله لتعرية وفضح ممارسات الظالمين، الذين يجب أن لا ندع ظلمهم يتحكم بنا، أو يسوسنا ويقرر اتجاه سيرنا ومصيرنا، فلا مسوّغ للظلم مهما كانت صورته وقلّ أثره.

لقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وستة فصول،

عرض الفصل الأول لمفهوم الظلم على الصعيدين اللغوي والشرعي، واستعرض الفصل الثاني الظلم بوصفه فعلاً وعلاقة وسلوكاً من منظور الشرع الحنيف، وعالج الفصل الثالث ثلاثية القوة والترف والظلم، بينما ركز الفصل الرابع على العلاقات الاجتماعية والظلم، وعرض الفصل الخامس لسسيولوجيا الظلم، بينما استعرض الفصل السادس بعض ثنائيات الظلم.

اللهم طال الانتظار ووقع اليأس، اللهم سيّر سلعة الوفاء فقد كسد سوقها، وأصلح قلوب الناس فقد فسد مكنونها، ولا تمتنا حتى يُنزع الجهل كما نزع العقل، وأمت اللهم النقص كما مات العلم[1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢، تم التحميل بتاريخ ٢٠١٣/٥/٢٥ من: www.al_mostafa.com.

الفصل الأول

الظلم: المفهوم اللغوي والمعنى الشرعي

- توطئة:

كان الإسلام بمثابة ثورة شاملة على حياة العرب في الجاهلية في جميع جوانبها، الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والتي كانت تقوم في كثير من حيثياتها على الظلم والجور، فجاء محمد ﷺ ليقيم على أنقاض هذه الجاهلية مجتمع العدل والحرية والمساواة وفق مبدأ التوحيد: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

لقد كانت شهادة «لا إله إلا الله» وما زالت تحريراً للإنسان وعقله من سلطان الخرافة والوهم والأسطورة، وهي أيضاً تحرير للإنسان من سلطة أخيه الإنسان، فالدين بكل مكوناته ينتهي بالناس إلى عبادة الله تعالى، التي هي قمة الحرية والتحرر، وكلمات ربعي بن عامر ﷺ لرستم المجوسي مازال، وسيبقى، صداها يتردد في أرجاء المعمورة، وعلى مسامع كل الظلمة والجبابرة: «إن الله بعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

الإسلام والظلم ضدان لا يلتقيان؛ لان الظلم ظُلمة ترين على القلب، فتمنع الناس من رؤية طريق الحق والصواب، التي هي طريق الإسلام؛ وأضمن

سبيل لمواجهة الظلم بصوره وأشكاله المختلفة هي عقيدة التوحيد، التي تنمّي في القلوب حبّ العدل وأهله ونصرته، فشعور المؤمن بالرقابة يحثه على محاسبة نفسه، فينتصر للعدل وينصره، ويقف سداً منيعاً في وجه الظلم وأهله، والمؤمن يستمد حبه للعدل من عقيدته القائمة عليه، يقول ابن الجوزي، رحمه الله تعالى: «وإنما ينشأ الظلم من ظلم القلب، لأنه لو استنار بنور الهدى لنظر في العواقب»[1].

لذلك نجد أن جلّ اهتمام الدعاة والعلماء والمصلحين وجهدهم يتركز دائماً ومن البداية على بناء العقيدة في قلوب الناس وعقولهم، من أجل توحيد الله تعالى في الألوهية والربوبية، وعبادته وحده، والرضا بحكمه، والركون إليه والميل نحوه، والاستسلام لإرادته ومشيئته، وتجنب عبادة الطواغيت والأوثان البشرية والخضوع لهم، فالقلب المشبع بعقيدة التوحيد لا يخاف الطغاة، ولا يرهب الظلمة وجبروتهم.

وقصة سحرة فرعون يوم الزينة هي عبرة وموقف على هذا الصعيد، فبعد أن كانوا يتملقون الطاغية فرعون من أجل قليل من متاع الدنيا، قذف الله تعالى في صدورهم الإيمان وزينه في قلوبهم، فآمنوا بعقيدة التوحيد، التي جاء بها موسى، عليه السلام، فكانت النتيجة أن أصبحت الدنيا وما فيها في نظرهم لا تساوي شيئاً، لذلك نجدهم رغم تهديد الطاغية لهم بالصلب والقتل، يجيبونه: ﴿ قَالُوا

---

(1) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز (القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٨م) ص١١٠.

لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ (طه:٧٢)، هذه هي عقيدة التوحيد التي فعلت فعل السحر، وهذ هي العقيدة التي تقود إلى زوال الظلم والطغيان وتلاشيهما[1].

والمتتبع لمعطيات الشرع الحنيف، يجد أن أصول الشورى في الإسلام تركز على جوانب مهمة خاصة بالحكم، فالعدل هو قوام الحكم بين المسلمين وغير المسلمين، والقرآن هو النور الذي يتم به القضاء على أساس من العدل والإنصاف، ودفع الظلم والعدوان عن النفس والعرض والمال حق، ولا جناح على من انتصر لنفسه ورد عنها الظلم، والسبيل إنما على الذين يظلمون الناس ويفسدون في الأرض، فالبغي محرم بكل أنواعه، والقصاص حق لمن وقع عليه ظلم، أو له العفو والفضل وبدون تجاوز[2].

يقود ابتعاد الناس عن عبادة الله تعالى- وهو عين الظلم- إلى ممارسة الفساد بكل صنوفه دون خوف أو وجل، وانتشار الظلم في المجتمعات الإسلامية لا يعني أبداً أن تعاليم الإسلام لا تفي بحاجات الناس من حريات وحقوق، وإنما الإصرار والتعمد في مخالفة هذه التعاليم هي السر في ذلك[3]، فمنذ أن أخذ الناس بالابتعاد، أفراداً وجماعات ومجتمعات، عن تطبيق هذه التعاليم في دقائق حياتهم اليومية وفي كل جوانب الحياة، بدأ داء الظلم يسري

---

(١) حاكم المطيري، تحرير الإنسان وتجريد الطغيان (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٩م) ص١٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٢-١٥٣.

(٣) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٦١م) ص٧، ٢٥.

في الجسد الاجتماعي، فتصلبت الشرايين وانهارت القوى، وأصبح الجسد عاجزاً واهناً، وتكالبت عليه كل الأمراض الاجتماعية والقوى الاستعمارية الطامعة، فكان الضعف والهزائم والانكسار والتقهقر إلى ذيل قافلة الحضارة.

حال الانحطاط، الذي تعيشه الأمة يرتبط بتوقف فاعلية الشرع الحنيف الناجمة عن توقف فاعلية أهله أنفسهم، الذين دخل على قلوب أغلبهم عقائد أخرى شاركت عقيدة الإسلام في أفئدتهم، لذلك يرى الماوردي أن صلاح الدنيا وانتظام أمورها يتحقق من خلال مجموعة من القواعد من أهمها[1]:

قاعدة العدل: والعدل هنا يعني العدل الشامل الذي يدفع إلى طاعة الله تعالى، ويصنع الود بين الناس، ويؤدي إلى عمران البلاد، ونمو المال، وتكاثر النسل، ويؤمن به من جور السلطان، هذا الجور الذي يقود إلى خراب البلاد وفساد العباد، وفي ذلك ورد الأثر: «بِئْسَ الزَّادُ إِلَى الْمَعَادِ الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبَادِ»[2].

وهذه الأمة، التي كرمها الله فجعلها أمة الرسالة يستبد بها أرذلهم: حارثهم ووارثهم سواء... هذه الأمة، التي حررت شعوب العالم القديم من ظلم الفرس والروم والقوط والمغول تستعبدها أنظمة ظالمة، متحالفة مع المستعمر الظالم وتستمد منه الشرعية والسلاح والمال للتطاول على الناس والحقوق[3].

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٣م) ص١٤١.

(٢) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق حسان عبد المنان (بيت الأفكار الدولية) ٤٢/١٠.

(٣) عادل البشتاوي، تاريخ الظلم العربي في عصر الأنظمة الوطنية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥م) ص١٢.

لقد انتشر العمران في المجتمع الإسلامي الأول واتّسع، وتزايدت ثروة الأمة، وتضاعفت قوتها العسكرية، واجتمعت كلمة الأمة، وسادت الأخوة والوحدة، وزاد الاهتمام بالعلوم والصناعات، نتيجة نفاذ أحكام الشرع، وتطبيق أصول العدل والشورى، كل ذلك عمل على ظهور المجتمع الإسلامي المتمدن في أبهى صوره وأرقى درجات رقيه، وهذا ما يؤكد حقيقة أن «العلم والعدل هما أساس التقدم، وأن الظلم والجهل هما أصل التقهقر»[1].

الظلم: تأصيل المفهوم والمعنى:

الظلم في اللغة مشتق من الفعل الثلاثي ظَلَمَ، وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه[2]، والموضع يقصد به هنا الموضع الشرعي، بمعنى الذي يقبله الشرع، وقيل: إن الظلم هو النقص، كما في قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ (الكهف:٣٣)، أي لم تنقص منه شيئاً، والظلم كذلك هو مجاوزة الحد، ومنه حديث الوضوء: «**فَمَنْ زَادَ أَوْ نَقَصَ فَقَدْ أَسَاءَ وَظَلَمَ**، أَيْ: أَسَاءَ الأَدَبَ بِتَرْكِهِ السُّنَّةَ وَالتَّأَدُّبَ بِأَدَبِ الشَّرْعِ، وَظَلَمَ نَفْسَهُ بِمَا نَقَصَهَا مِنَ الثَّوَابِ بِتَرْدَادِ الْمَرَّاتِ فِي الْوُضُوءِ»[3].

---

(١) الماوردي، أدب الدنيا والدين، مرجع سابق، ص١٣٣، ١٧٧.

(٢) مجد الدين الفيروز أبادي، القاموس المحيط (بيروت: المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بدون تاريخ) ١٤٧/٤.

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري (القاهرة: مكتبة مصر، ٢٠٠١م) ٣٥/٥.

والظلم عند العسقلاني هو اسم لما أخذ بغير حق[1]، ويأخذ الظلم في العربية أيضاً معنى الميل عن القصد، حيث تقول العرب: الْزَمْ هذا القصد ولا تظلم عنه، أي لا تَجُرْ عنه، والمظالم جمع مظلمة، ومصدرها: ظلم يظلم، وهو اسم لما أخذ بغير حق، أي غصباً، والغصب سلب حق الغير دون وجه حق[2].

والظلم والظلام والظلمة ذات مصدر لغوي واحد، ومعنى هذا المصدر السواد الداكن، وإذا كان الظلام يسبب عمى البصر مجازاً؛ لأنه يمنع الرؤية والإبصار، فإن الظلم يعكس عمى القلب والبصيرة عند فاعله[3].

وقد لوحظ أن مفردة الظلم قد أخذت في الشرع معاني متعددة (الجدول رقم ١)، فهو الشرك: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣)، وهو كذلك منع تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (المائدة:٤٥)، وهو أيضاً الخروج على أحكام الشريعة: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة:٢٢٩).

وجاء الظلم في القرآن الكريم بمعنى الفساد، وهو التلف والعطب والاضطراب والخلل وإلحاق الضرر بالناس، يقول تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى

---

(١) المرجع السابق،ص ٣٥.

(٢) ابن منظور، لسان العرب (دمشق: دار الفكر، بدون تاريخ) ٣٢٧/١٢.

(٣) عودة السوالقة، الظلم والظالمون وعقوبة الدارين (عمان: الناشر المؤلف نفسه، ٢٠١٠م) ص١١.

﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم:٤١)، يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «أن فساد البر هو قتل ابن آدم، وفساد البحر هو أخذ السفينة غصباً، أي غصب الناس حقوقهم».

ويلاحظ أن الطغيان والفساد متلازمان ولا ينفصل أحدهما عن الآخر، والفساد غالباً ما ينشأ عن الطغيان، بل إن الطغيان هو صانع الفساد وسببه الرئيس، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ (الفجر:١١-١٢)[1]، والطغيان هو مجاوزة الحد في كل شيء، ويقال: طغى الإنسان طغياناً، أي جاوز القدر في الكبر والمعصية والكفر[2].

والعدوان ظلم، وهو تجاوز ما ينبغي أن يُقتصر عليه، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (المائدة:٢).

وأخذ الظلم في القرآن الكريم معنى البغي، وهو الفساد والشدة ومجاوزة الحد بغير حق، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ (الشورى:٣٩)[3].

(١) انظر: فضل حسن عباس، خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة (عمان: دار الفرقان للنشر، ٢٠٠٤م) ص١٤٩.

(٢) bayanelislam.net/view.aspx.

(٣) انظر: العسقلاني، مرجع سابق، ص١٤١.

يقوم البغي على العسف وبخس الحقوق والاستعلاء على الناس، وينتج غالباً عن البغضاء والحسد، ونظراً لخطورته، فقد تم تحريمه في القرآن الكريم مقروناً بالشرك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٣).

وكما يكــون البغي على الآخــر، فــإنه يكون أيضاً على النفس، فعندما يتوب الإنسان وقت الشدّة، ثم يعود إلى سابق عهده وقت الرخاء، وينسى أو يتناسى ما التزم به أمام الله تعالى، فإنه يكون قد بغى على نفسه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:٢٢-٢٣).

وجاء الظلم بمعنى الاستبداد، والاستبداد ما هو إلا تصرف فرد أو جماعة في حقوق آخرين بالمشيئة، وبلا خوف من أي تبعات أو مسؤولية أو عقاب أو خشية، وهو بهذا المعنى يرادف التسلّط والتحكّم والاعتساف، ومن يمارس الاستبداد مستبد، ومترادفاتها جبار وطاغية وحاكم بأمره وحاكم

مطلق، أما من يُمارَس عليهم الاستبداد، فهم أسرى أو مستصغرون أو بؤساء أو مستنبتون[1].

والجور ظلم، وفي اللغة يعني تقويض البناء وهدمه، والقهر ظلم وهو الاضطرار من غير رضى[2]، وأما العتو فهو التّكبر والتّجبر والعصيان، وهو أيضاً النبوّ عن الطاعة، وقد ذكر أبو هلال العسكري أن العتو ما هو إلا حالة وسطى بين الظلم والطغيان، يقول تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ (الطلاق:٨).

وجاءت مفردة الهضم بمعنى الظلم، والهضم في اللغة هو الشرخ الذي لا يوجد فيه رخاوة، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (طه:١١٢). والتعدي هو مجاوزة الحق، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء:١٤).

ووردت مفردة الحيف في القرآن الكريم أيضاً بمعنى الظلم، وهو يعني الميل في الحكم والاصطفاف مع أحد الجانبين، يقول تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (النور:٥٠)، والجَنَف ظلم ويعني الميل في الحكم[3]، يقول تعالى:

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، مرجع سابق، ص٣٧.

(٢) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط (القاهرة: مجمع اللغة العربية، ١٩٧٢م).

(٣) www.paldf.net.

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة:١٨٢).

يتبين مما سبق، أن مفردات الجور، والبغي، والقهر، والفساد، والاستبداد، والطغيان، والعدوان، والعتو، والهضم، والحيف، والتعدي، والجنف كلها مفردات لغوية تحمل في ثناياها معنى مجاوزة الحد والمبالغة في الفعل، وتطلق على صور وأشكال مختلفة للظلم، وهي على درجات متباينة في مقدار المجاوزة والمبالغة والميل عن القصد، لذلك هي متدرجة ومتباينة في مستويات خطورتها، وهذا يعني من منظور لغوي أن الظلم مفهوم موسوعي يكتنز في ثناياه معاني كل هذه المفردات، بمعنى أن المظلة اللغوية لمفهوم أو مصطلح الظلم تتسع لتغطي هذه المفردات كلها، وأيضاً تضم هذه المظلة اللغوية لمفردة الظلم كل الأفعال والأقوال التي تتعارض مع أحكام الشريعة وتعاليمها، ابتداءً من أكبر الكبائر وهي الإشراك بالله تعالى، حتى اللمم من الذنوب، قال ابن عباس وأصحابه: «كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق»[١].

فالظلم اسم جامع لكل ما أُخذ، أو مُنع بغير حق، أو وُضع في غير مكانه الذي يجب أن يكون فيه شرعاً وعقلاً.

وبذلك يكون الظلم درجات ومستويات مختلفة تقررها طبيعة المخالفة للشرع ونوعها، وحجم الضرر الناتج أو المتحصل عن ذلك، وهذا ما يراه

---

(١) أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوي، ط١ (الرياض: طباعة ورثة عبد الرحمن بن محمد، ٢٠٠٢م) ٧/٦٧.

الإمام الغزالي الذي يذهب إلى القول بأن كل ما يضر به طرف لطرف آخر في المجتمع فهو ظلم، على اعتبار أن الضابط الكلي في ذلك هو قول الله عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ (النحل: ٩٠).

ويتفق شيخ الإسلام ابن تيمية مع الإمام الغزالي بقوله: «إن الذنوب كلها ظلم»، ويقول أيضاً: «إن جميع الحسنات تدخل في العدل، وجميع السيئات تدخل في الظلم»، ويقول أيضاً: «إن جماع الحسنات العدل، وجماع السيئات الظلم»[1]، وهذا أصل جامع عظيم، وتفصيل ذلك: أن الله خلق الخلق لعبادته، فهذا المقصود المطلوب لجميع الحسنات، وهو إخلاص الدين كله لله، وما لم يحصل فيه هذا المقصود، فليس حسنة مطلقة مستوجبة لثواب الله في الآخرة، وإن كل حسنة من بعض الوجوه لها ثواب في الدنيا، وكل ما نهى عنه فهو زيغ وانحراف عن الاستقامة، ووضع للشيء في غير موضعه: فهو ظلم»[2]، لذلك نجد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، التي تتناول آفة الظلم بصورها وأشكالها المختلفة كثيرة ومتعددة، وإن دلّت هذه الكثرة على شيء فإنما تدل على التفشي الكبير للظلم الذي يسود المجتمعات الإنسانية عبر الزمان والمكان.

---

(١) المرجع السابق، ٨/١٨٢، ١٨٤.

(٢) المرجع السابق، ١/٨٦.

ويذهب ابن خلدون مذهب الإمام الغزالي وابن تيمية، حيث يقول في مقـدمتـه: «... ولا تحسبن الظلم هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عـوض ولا سبب كما هو المشهور، بل إن الظلم أعم من ذلك، وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمـله، أو طـالبه بغير حق، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه، فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة وغصّاب الأملاك على العموم ظلمة»[1].

والظلم في الحياة عملة ذات وجهين أو صورتين هما[2]:

- ظلم القول: وهو ظلم اللسان، كأن يتم الإساءة للنفس، أو الآخر بالسـباب أو الشـتم أو الغيبـة أو النميمـة أو السـخرية أو القـذف أو شـهادة الزور...الخ.
- ظلم الفعل: وهو إلحاق الضرر بالنفس أو بالآخر من خلال الاعتداء بالقتل أو الضرب أو السرقة أو الربا أو الزنى أو اللواط أو التجسس أو أكـل المال بالباطل أو خيانة الأمانة...الخ.

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ) ص ٢٨٨.

(٢) نايـف الحمـد، ظلمـات الظلـم، مجلـة العـدل، وزارة العدل، ع ٥٣، الرياض، ١٤٣٣هـ، ص ٢٣٨.

جدول رقم (١)

بعض معاني الظلم

التسلسل	المعنى	المرجعية
١	وضع الشيء في غير موضعه	معاجم اللغة
٣	مجاوزة الحد	معاجم اللغة
٤	الأخذ بغير حق	معاجم اللغة
٥	الميل عن القصد	معاجم اللغة
٦	الغصب	معاجم اللغة
٧	السواد الداكن	معاجم اللغة
٨	التسلّط	الكواكبي/طبائع الاستبداد
٩	التحكّم	الكواكبي/طبائع الاستبداد
١٠	الاعتساف	الكواكبي/طبائع الاستبداد
١١	الاستبداد	الكواكبي/طبائع الاستبداد
١٢	الجور	معاجم اللغة

المرجعية	المعنى	التسلسل
معاجم اللغة	القهر	١٣
القرآن الكريم: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾	العدوان	١٤
القرآن الكريم: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾	النقص	١٥
القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾	الشرك	١٦
القرآن الكريم: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾	منع تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية	١٧
القرآن الكريم: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾	الخروج على أحكام الشريعة	١٨
القرآن الكريم: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾	الفساد	١٩
القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾	الطغيان	٢٠
القرآن الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾.	البغي	٢١

التسلسل	المعنى	المرجعية
٢٢	العتو	القرآن الكريم : ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾
٢٣	الهضم	القرآن الكريم: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾
٢٤	التعدي	القرآن الكريم: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾
٢٥	الحيف	القرآن الكريم: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾
٢٦	الجنف	القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

- المصدر: عمل الباحث.

- القرآن الكريم والظلم:

ورد الفعل ظلم ومشتقاته في القرآن الكريم في نحو (٢٨٩) موضعاً، تغطي أكثر من نصف سوره. وقد جاء الفعل ظلم في الكتاب العزيز في صورة (٣٥) مشتقة لغوية، أكثرها وروداً مشتقة ظالمين، وهذا القدر من ذكر الظلم بمترادفاته ومشتقاته يدل على مدى خطورة هذا الداء العضال على الأفراد والجماعات والمجتمعات.

نزّه المولى عز وجل نفسه عن الظلم في آيات كثيرة في محكم التنزيل، من هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر[1]، قال تعالى:

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمـران:١٠٨)، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النسـاء:٤٠)، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٤٩)، ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ (غافر:٣١)، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (ق:٢٩).

ورفض الخطاب القرآني الظلم وحرمه، ولم يوجب الصبر عليه، قال تعالى مخاطباً المؤمنين في مكـة: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى

---

(١) نايف الحمد، ظلمات الظلم، المرجع السابق، ص ٢٣٣.

ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ (الشورى:٣٩-٤٢).

وقد علل الكتاب العزيز في تشريع جهاد الدفع لرفع الظلم الواقع على النفس بقوله تعالى في سورة الحج الآيات (٣٩-٤١): ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾[1].

لذلك جاء تحريم الظلم وهو نقيض العدل في مواضع عدة في الكتاب العزيز، وبصورة مباشرة وواضحة لا لبس فيها، وحذّر الله تعالى في القرآن الكريم من التردي في وَهْدَة الظلم، وتوعّد بسوء العاقبة للظالمين، يقول عز وجل في آيات الظلم في آخر سورة إبراهيم:

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ۝ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم

(١) حاكم المطيري، تحرير الإنسان وتجريد الطغيان، مرجع سابق، ص ١٩٠.

مِن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (إبراهيم:٤٢-٥٢).

وفي سورة الكهف، يتوعد الله تعالى الظالمين بالعذاب الشديد يوم القيامة، فيقول تعالى: ﴿...إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف:٢٩).

وفي سورة الأعراف يلعن المولى عز وجل الظالمين ويطردهم من رحمته بقوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأعراف:٤٤).

ويتوعد العزيز الجبار في سورة النساء الظلمة من مغتصبي أموال اليتامى، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء:١٠).

وهكذا لم يترك القرآن الكريم باباً من أبواب الظلم إلا حذّر منه، ومن الولوج فيه، مقرناً ذلك بالوعيد بالعذاب الشديد تارة، وباللعن تارة أخرى.

- العدل غاية الشرع وهدفه:

يقول ابن الجوزي، رحمه الله تعالى: «اعلم أن الظلم يشتمل على معصيتين: الأولى أخذ مال الغير بغير حق، والثانية مبارزة الأمر بالعدل بالمخالفة»[1]، والعدل هو الصورة المقابلة للظلم، وهو من أسماء الله الحسنى، به قامت السموات والأرض، وعليه أمر الله تعالى أن تقوم الحياة بكل معطياتها وجوانبها.

وقد وردت مفردة العدل في القرآن الكريم في (٢٨) آية، ذلك أن العدل واحد، وليس له صور، وأشكال متباينة، ومترادفات متعددة كالظلم، فطريق العدل هي طريق واحد مستقيم واضح المعالم والتفاصيل، من ولجه وصل، ومن ابتعد عنه ضلّ وتاه، طريق العدل هي طريق الله وإلى الله ولله وبالله، والعدل مفهوم سهل وبسيط يمكن فهمه ومعرفته من قبل عامة الناس، ومما يلفت النظر، أن الآيات القرآنية التي تتحدث عن العدل جاءت حاسمة، إذْ إنها تأمر أمراً بتطبيق العدل[2].

وقد أكد القرآن الكريم في آيات كثيرة العدل المقترن بالحرية بوصفه قيمة عليا لإقامة الحياة وصلاحها في المجتمعات الإنسانية، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ص١١٠.

(٢) http://nabeelalkam.com/new/filemanager.php?action=save&id=240.

أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد: ٢٥).

يقول ابن تيمية في هذه الآية: «بيّن سبحانه وتعالى أنه أنزل الكتاب وأنزل العدل وما به يعرف العدل، ليقوم الناس بالقسط، وأنزل الحديد، فمن خرج عن الكتاب والميزان قوتل بالحديد، فالكتاب والعدل متلازمان، والكتاب هو المبين للشرع، فالشرع هو العدل، والعدل هو الشرع، ومن حكم بالعدل فقد حكم بالشرع»[1]، فكل ما نهى الله تعالى عنه راجع إلى الظلم، وكل ما أمر به ارتبط بالعدل.

والعدل مشتق من الاعتدال، فما جاوز الاعتدال أو زاد عنه، فهو ظلم لأنه خروج عن العدل، وكل فساد ما هو إلا نتيجة الخروج عن حال العدل إلى ما ليس بعدل، زيادة أو نقصاناً. وقد قيل: إن أفعال الخير أو الفضائل ما هي إلا نقاط وسط بين خلقين مذمومين، أو بين رذيلتين، فالشجاعة نقطة وسط بين الجرأة والجبن، والتواضع نقطة وسط بين الكبر ودناءة النفس، والكرم نقطة وسط بين التقتير والإسراف وهكذا[2]، وقيل أيضاً: «السلطان السوء يخيف

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، م ٣٥ ، ص٣٦٦.

(٢) الماوردي، أدب الدنيا والدين، مرجع سابق، ص١٤٣-١٤٤.

البريء، ويصطنع الدنيء، والبلد السوء يجمع السّفل، ويورث العلل، والولد السوء يشين السلف، ويهدم الشرف، والجار السوء يفشي السر، ويهتك الستر، فجعل هذه الأشياء بخروجها عن الأولى إلى ما ليس بأولى، خروجاً عن العدل إلى ما ليس بعدل»[1].

والعدل عدلان، هما[2]:

- العدل في النفس.
- العدل في الآخر.

أما العدل في النفس فيعني حملها على العمل بكل ما أمر به الشرع الحنيف، والابتعاد عن كل ما نهى عنه، والتقصير في هذا الموضوع ظلم والتجاوز فيه جور، ومن جار على نفسه فهو لغيره أَجْوَر.

ويشمل العدل في الآخر ما يأتي[3]:

- عدل الإنسان فيمن دونه «باتّباع الميسور، وحذف المعسور، وترك التسلط بالقوة، وابتغاء الحق في السيرة».
- عدل الإنسان مع من فوقه، فيكون «بإخلاص الطاعة، وبذل النصرة، وصدق الولاء».

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص١٤٣-١٤٤.

(٢) فهمي جدعان، مرجع سابق، ص٥٩، ٢٠٤.

(٣) المرجع السابق، ص٥٩.

- العدل مع الأكفاء، ويكون «بِتَرْكِ الاسْتِطَالَةِ، وَمُجَانَبَةِ الإِذْلالِ، وَكَفِّ الأَذَى».

والعدل قد يكون أداء واجب، أو ترك محرم، أو الاثنين معاً، ومنه ما هو ظاهر مثل وجوب الصدق، وعدم الغش، وتطفيف الميزان...الخ، ومنه ما هو خفي، ويشمل عامة ما نهى عنه الكتاب والسنة من المعاملات، مثل أكل الأموال بالباطل والربا والميسر...إلخ[1].

والعدل هو أصل الحكم والسياسة في الإسلام بل هو أصل الحياة في كل جوانبها، وقد قال العز بن عبد السلام: إن العدل هو الأصل العام لجميع الأحكام الشرعية في كل ميادين الفقه، وقال الرازي: إن القرآن كله ليس إلا تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ (النحل: ٩٠)، فهي قلب القرآن الكريم وجوهره. وعليه، فإن إقامة العدل هو محور رسالة الإسلام، وإن الدعوة للإسلام هي دعوة للعدل الذي يريده الله تعالى لعباده أفرادا وجماعات، ومن ثَمّ فإن المطلوب من كل فرد أن يقيم العدل فيما يقدر عليه، وإذا ما تكرست ثقافة العدل في النفوس وفي المجتمعات، فإن شهوة الظلم والطغيان، تتهاوى وتخبو وتتلاشى[2].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوي، مرجع سابق، ٨/١٨٣، ٣٨٥.

(٢) http://nabeelalkam.com/new/filemanager.php?action=save&id=240.

- **السنة النبوية الشريفة والظلم:**

أكدت السنة المطهرة كذلك حرمة الظلم، وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة: ففي الحديث القدسي قال أبو ذر الغفاري، رضي الله تعالى عنه: قال الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال:

«يا عِبَادِي إني حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا...»[1].

هذا الحديث هو خطاب للناس عامة وللمؤمنين خاصة بأن لا يظلم أحدٌ أحداً؛ لأن الإسلام مبني على العدل في الدماء والأموال والأنساب والأعراض، ومن أجل ذلك جاء الشرع الحنيف بالقصاص في هذه جميعاً، لمعاقبة المعتدي بمثل ما فعل.

قال ﷺ: **«اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»**[2].

وعن أبي هريرة، رضي الله تعالى عنه، عن الرسول ﷺ قال: **«مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ، إلا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولاً، لا يَفُكُّهُ إلا الْعَدْلُ، أَوْ يُوبِقُهُ الْجَوْرُ»**[3].

---

(١) أخرجه مسلم، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧، انظر: مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فواد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ).

(٢) أخرجه مسلم، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٨.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي بكرة: أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَحْرَى أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْعُقُوبَةَ لِصَاحِبِهِ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، مِنْ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»[1].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله تعالى عنهما، أن الرسول ﷺ قال: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ، وَأَهْلِيهِمْ، وَمَا وَلُوا»[2].

والأحاديث النبوية الشريفة عن الظلم كثيرة، ويصعب حصرها، وهي جميعاً تؤكد حرمته وخطورته في كل زمان ومكان.

---

(١) أخرجه أبو داود، حديث رقم ٤٩٠٢، وأخرجه الإمام أحمد، حديث رقم ٢٠٣٩٨، انظر: سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين (صيدا: المكتبة العصرية، بدون تاريخ)؛ أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م).

(٢) أخرجه مسلم، حديث رقم ١٨٢٧.

الفصل الثاني
الظلم في ميزان الشرع الحنيف

- مقدمة:

الظلم من المواضيع، التي احتلت حيزاً لا يستهان به في مصادر التشريع الإسلامي الأساسية: القرآن الكريم والسنة الشريفة، وهذا الحيز الكبير يدل على درجة الاهتمام العظيمة التي حظي بها هذا الموضوع، فالظلم بكل صوره وأشكاله يتعارض مع رسالة الإسلام التي هي رسالة العدل، فهو يتناقض مع المعروف الذي أمر به الشرع الحنيف وينسجم مع المنكر الذي نهى عنه، وبالتالي فهو والإسلام على نقيض، لذلك ركزت مصادر التشريع الإسلامي عليه، مبينة خطورته على حياة الأفراد والمجتمعات.

- تحريم الظلم:

يحرم الإسلام الظلم بكل صوره وأشكاله، ويدين أسبابه وآلياته، ويحذّر من تداعياته وآثاره، ويأبى على المسلم أن يكون ظالماً أو عوناً لظالم، وحرمة الظلم تؤكدها جميع مصادر التشريع في الإسلام من قرآن كريم وسنة وإجماع وقياس، ولا يقف التحريم على ظلم المسلم بل يتعداه إلى تحريم ظلم الكافر والذمي والمعاهد، يروي أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:

«اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ»[1]، ويقول النبي ﷺ: «أَلا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

وتكمن حكمة تحريم الظلم في مدى خطورته على كل أشكال الحياة وعلى كل الكائنات من بشر وحيوانات ونباتات، يقول أبو هريرة، رضي الله تعالى عنه: «إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم»[3]، ويقول ابن القيم، رحمه الله: «سبحان الله! كم بكت في تنعم الظالم عين أرملة واحترقت كبد يتيم وجرت دمعة مسكين: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ (المرسلات:٤٦)، ما ابْيَضَّ لون رغيفهم حتى اسْوَدَّ لون ضعيفهم، وما سمنت أجسامهم حتى نحلت أجسام من استأثروا عليه»[4].

فالباغي الظالم ينتقم الله منه في الدنيا والآخرة، فإن البغي مصرعه، قال ابن مسعود: «لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ، لَجَعَلَ اللَّهُ الْبَاغِيَ مِنْهُمَا دَكًّا»، ومن حكمة الشعر:

قضى اللهُ أنَّ البغيَ يصرعُ أهلَه وأنَّ على الباغي تدورُ الدوائرُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، حديث رقم ٢٦١٥.

(٢) أخرجه أبو داود، حديث رقم ٣٠٥٢، انظر: نايف الحمد، ظلمات الظلم، مرجع سابق، ص٢٣٨.

(٣) ابن قيم الجوزية، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (عمان: دار الإسراء، ٢٠٠٤م) ص ٥٢.

(٤) نايف الحمد، ظلمات الظلم، مرجع سابق، ص٨٨.

وورد في الحديث: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَحْرَى أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْعُقُوبَةَ لِصَاحِبِهِ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، مِنْ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»[1].

فالظلم يخلق الفوضى في المجتمع، ويزرع الحقد والبغضاء، ويولّد الحسد والمشاحنات بين الناس، يقول الشاعر نعمان ثابت[2]:

أوغر الظالمون منا الجنانا   أزهقوا النفس واستباحوا حمانا

وقيل أيضاً[3]:

فلا تأمننَّ الدهر حرّاً ظلمتَه   فما ليلُ حرٍّ إن ظلمت بنائم

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً   فالظلم مصدره يُفضي إلى الندمِ

تنام عيناك والمظلوم منتبهٌ   يدعو عليك وعين الله لم تنمِ

والظلم يفضي إلى خراب ودمار مقدرات الأفراد والمجتمعات، ويعزز من انتشار الجشع والاحتكار في المجتمع، ويعمل على انتشار قيم اللصوصية وشريعة الغاب، ويكرّس ثقافة الخوف والقرصنة والكذب والتدليس، فتغيب المروءة لدرجة يصاب فيها الأفراد بفوبيا الخوف الدائم على أنفسهم وأسرهم وحقوقهم وأملاكهم، سواء أكانوا ظلمة أم مظلومين.

---

(١) سبق تخريجه؛ انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، م٣٥، ص٨٢.

(٢) موقع أدب عربي: http://ara.bi/poetry/106987

(٣) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، المستظرف في كل فن مستظرف، ص ١٦٤.

والظلم سلوك لئيم، يعرقل تقدم المجتمعات، ويحول دون رقيها، بل ويدفعها إلى ظلمات التخلف والانحطاط،

وقد روي بأن الرشيد سجن أبا العتاهية، فكتب هذا على جدار السجن[1]:

أَمَا وَاللَّهِ إِنَّ الظُّلْمَ لُؤْمٌ ... وَمَا زَالَ الْمُسِيءُ هُوَ الظَّلُومُ

إِلَى دَيَّانِ يَوْمَ الدِّينِ نَمْضِي ... وَعِنْدَ اللَّهِ يَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

لأمرٍ ما تصرّفت الليالي ... وأمرٍ ما توليت النجومُ

ستعلم في الحساب إذا التقينا ... غدا عند الإله من الملومُ

سينقطع التروح عن أناس ... من الدنيا وتنقطع الغمومُ

تلوم على السَّفاهِ وأنت ... فيه أجل سفاهةً ممن تلومُ

وتلتمس الصلاحَ بغير حلمٍ ... وإن الصالحين لهم حلومُ

تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبه للمنية يا نؤومُ

تموت غدا وأنت قرير عينٍ ... من الغفلات في لججٍ تعومُ

لهوت عن الفناء وأنت تفني ... وما حي على الدنيا يدومُ

تروم الخلد في دار المنايا ... وكم قد رام غيرك ما ترومُ

سل الأيام عن أمم تقضت ... ستخبرك المعالم والرسومُ

وما تنفك من زمن عقور ... بقلبك من مخالبه كلومُ

إذا ما قلت قد زجيت غما ... فمر تشعبت منه غمومُ

وليس يذل بالإنصاف حيّ ... وليس يعز بالغشم الغشومُ

وللمعتاد ما يجري عليه ... وللعادات يا هذا لزومُ

---

(١) الماوردي، أدب الدنيا والدين، مرجع سابق، ص١٤٠.

والظلم خطير على الأملاك والعمران، فهو كما يقول ابن خلدون «مؤذن بخراب العمران»[1]، لأنه يضّر بالمقاصد الخمس، التي أمر الشرع بضرورة المحافظة عليها وهي:

- الدين؛ النفس؛ العقل؛ النسل؛ المال.

وما هذه المقاصد إلا مقومات الحياة الإنسانية في كل زمان ومكان، فهدمها بالظلم يعني خراب المجتمعات ودمار عمرانها[2].

وورد على لسان أحد رجال الدين الفرس قوله: «إن المُلك لا يتم عزه إلا بالشريعة، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عز للمَلِك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة والصناعة والزراعة وما شابه ذلك من أوجه التكسُّب، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، فإذا زال العدل انهارت العمارة وتوقف الإنتاج فافتقر الناس، واستمرت سلسلة التساقط حتى ينهار المُلك»[3].

والمجتمع عندما يحيد ويبتعد عن قيم العدل والشورى والحرية، ويجنح إلى الظلم والاستبداد والعبودية، فإن ذلك مدعاة لسقوطه وانهياره وزواله، فقد كان

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص٢٨٨.

(٢) المرجع السابق، نفسه، ص٢٨٨.

(٣) نفسه.

الظلم سبب هلاك وزوال كثير من المجتمعات والأمم الغابرة، وقد أشار الكتاب العزيز إلى ذلك في مواضع عدة منها[1]:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يونس:١٣)، ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ (الكهف:٥٩)، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص:٥٩).

ويقول الشاعر:

إذا جارَ الوزيرُ وكاتباه　　وقاضي الأرض أجحف في القضاء

فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ　　لقاضي الأرض من قاضي السماء

ويكون الظلم مضاعفاً عندما تطبق القوانين والحدود على الضعفاء والدهماء من الناس دون السادة وعِلية القوم، يقول الرسول ﷺ: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ**»[2].

والظلم مجلبة لعذاب الله تعالى وعقابه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النمل:٥٢).

---

(١) حاتم المطيري، تحرير الإنسان وتجريد الطغيان، مرجع سابق، ص١٢٠.

(٢) أخرجه البخاري؛ انظر: حامد المطيري، تحرير الإنسان...، مرجع سابق، ص١٢٠.

وهو ينزع البركة من كل شيء في المجتمع، سواء أكانت أموالاً أو أملاكاً أو نباتاتٍ أو حيواناتٍ، يقول وهب ابن منبه: «إذا هم الوالي بالجور، أو عمل به، أدخل الله النقص في أهل مملكته في الأسواق والزروع والضروع وكل شيء، وإذا هم الوالي بالخير والعدل، أو عمل به، أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك»[1]، وقيل «عدل السلطان أنفع من خصب الزمان»[2].

قَالَ مُجَاهِدٌ: «إِذَا وَلِيَ الظَّالِمُ سَعَى بِالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ، فَيَحْبِسُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْقَطْرَ، فَيَهْلِكُ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ، وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ، ثم قرأ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١)».

تعود عاقبة الظلم على صاحبه، والظالم يدفع ثمن أفعاله غاليا في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة: ٢١)، ويقول أيضاً: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ (الأنبياء: ١١).

وقيل: «الظالمُ سيفُ الله، ينتقم به، ثم ينتقم منه»[3].

وقيل: «يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم»[4].

---

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، المستظرف، مرجع سابق، ص١٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٣) عبد الرحمن الكواكبي، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد جمال طحان (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥م) ص٤٤١.

(٤) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، المستظرف، مرجع سبق، ص١٦٣.

ويقول الإمام الشافعي:

بلوتُ بني الدنيا فلم أرَ فيهم ... سوى من غدا والبخل ملءَ إهابه
فجردت من غمد القناعة صارما ... قطعت رجائي منهم بذبابة
فلا ذا يراني واقفا في طريقه ... ولا ذا يراني قاعدا عند بابه
غني بلا مال عن الناس كلهم ... وليس الغني إلا عن الشيء لا به
اذا ما الظالم استحسن الظلم ... مذهبا ولجّ عتوا في قبيح اكتسابه
فكلها إلى صرف الليالي فإنها ... ستدعي له ما لم يكن في حسابه
فكم رأينا ظالما متمرداً ... يرى النجم تحت ظل ركابه
فعمّا قليل وهو في غفلاته ... أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لا مال ولا جاه يرتجى ... ولا حسنات تلتقي في كتابه
وجوزي بالأمر الذي كان فاعلا ... وصب عليه سوط عذابه

وقد اشتكى واستصعب شاعر الجاهلية طرفة بن العبد ظلم الأهل والقربى فقال[1]:

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً ... عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ
أَرَى الْمَوْتَ أَعْدَادَ النُّفُوسِ وَلاَ أَرَى ... بَعِيدًا غَدًا مَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ غَدِ
سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً ... وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

---

(١) أحمد الشنقيطي، المعلقات العشر وأخبار شعرائها (دار النصر للطباعة والنشر) ص٧٤.

لقد كان الرسول ﷺ يكثر من الاستعاذة بالله تعالى من الظلم[1]، فعن أبي هريرة، رضى الله عنه، أن النبي ﷺ كان يدعو ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَالْقِلَّةِ، وَالذِّلَّةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ، أَوْ أُظْلَمَ**»[2]، وقد أمر الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام، بالاستعاذة من الظلم كلما خرج الإنسان من بيته، فعَنْ أُمِّ المؤمِنِينَ أُمِّ سلَمَةَ، رضي اللَّهُ عنها، أن النبيَّ ﷺ كانَ إذَا خَرجَ مِنْ بيْتِهِ قالَ: «**بسم اللَّهِ، توكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذُ بِكَ أنْ أَضِلَّ او أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ اوْ أُزلَّ، اوْ اظلِمَ اوْ أُظلَم، اوْ أَجْهَلَ او يُجهَلَ عَلَيَّ**»[3].

- الركون إلى الظلمة:

الركون إلى الظلمة هو الاعتماد عليهم في تحقيق بعض المكاسب الدنيوية الفانية، وهذا يعني مداهنتهم وتزيين ظلمهم والرضا عنه، ومن يوافق الظالم على ظلمه فهو شريكه في ظلمه، ومن يعين الظالم على الظلم فهو مثله، قال الرسول الكريم ﷺ: «**مَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ بِظُلْمٍ أَوْ يُعِينُ عَلَى ظُلْمٍ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ**»[4]، لذلك حذّر القرآن الكريم من الركون إلى

---

(١) نايف الحمد، ظلمات الظلم، مرجع سابق، ص٢٣٢-٢٣٤.

(٢) أخرجه أحمد، حديث رقم ٨٠٣٩؛ والنسائي، حديث رقم ٥٤٦٠.

(٣) أخرجه أحمد، حديث رقم ٢١٧١٠.

(٤) أخرجه ابن ماجه، انظر: محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

الظلمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (هود:١١٣).

لكن يجب ألاّ يسكت أو يُوافق أو يرضى الأفراد والجماعات عن الظلم، الذي يمارسه الآخرون، ولا يجوز أن يُستمرأ ذلك منهم، لذلك يُعدّ عدم ردع الظالم عن ظلمه من أهم صور الركون إلى الظلمة، وهذا الركون إلى الظلم يخالف مقاصد الشرع الحكيم؛ لأن ذلك يؤدي إلى استشراء الظلم والطغيان وضياع الحقوق، وفي الحديث، يقول الرسول ﷺ لما ذُكر الظلمة: «... **فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ، فَصَدَّقَهُمْ بِكِذْبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَيُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[1]، ويقول ﷺ أيضاً: «**مَنْ أَعَانَ بَاطِلاً لِيُدْحِضَ بِبَاطِلِهِ حَقًّا، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ، وَذِمَّةُ رَسُولِهِ** (ﷺ)»[2]، ويقول ميمون بن مهران: «الظالم والمعين على الظلم والمحب له سواء»[3].

وفي الحديث، **عَنْ عَبَّادِ بْنِ كَثِيرٍ الشَّامِيِّ، عَنْ امْرَأَةٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهَا فُسَيْلَةُ، قَالَتْ: «سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنَ**

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير، حديث رقم ١١٥٣٩، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق حمدي السلفي (القاهرة: مكتبة ابن القيم، دون تاريخ).

(٣) *www.hudaelislam.org/ar/altholm.*

الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ؟ قَالَ: لا، وَلَكِنْ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُعِينَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ»[1]، وسأل السجانُ الأمامَ أحمد بن حنبل، عندما كان مسجوناً في محنة «خلق القرآن»، عن الأحاديث النبوية الشريفة، التي وردت في أعوان الظلمة، فقال له: الأحاديث صحيحة، فقال السجان: هل أنا من أعوان الظلمة؟ فقال له: لا، لست من أعوان الظلمة، إنما أعوان الظلمة من يخيط لك ثوبك، ومن يطهو لك طعامك، ومن يساعدك في كذا، أما أنت فمن الظلمة أنفسهم.

نحن نتحدث دائماً عن الظلمة، ولا نتذكر أعوانهم الذين يقودون حرب الشر ضد الخير، ويمارسون الظلم بكل أشكاله وصوره باسم الظلمة، وتحت راياتهم، وفي ظل حمايتهم، يقول فقيه الإسلام الحسن البصري، رحمه الله تعالى: «جعل الدين بين لاءين: لا تطغوا، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا»[2].

ومن صور الركون للظلمة كذلك، مداهنتهم، والرضا عن ظلمهم، وتبريره في مقابل تحقيق مكسب أو منفعة دنيوية، يقول الحسن البصري، رحمه الله تعالى: «مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بِالْبَقَاءِ، فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى اللَّهُ فِي أَرْضِهِ»[3]، وسأل أحدُهم سفيان الثوري، رحمه الله تعالى، قال: أنا أخيط للظلمة، فهل أنا ممن

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

(٢) فضل حسن عباس، خماسيات مختارة، مرجع سابق، ص ١٥٣-١٥٤.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥٥-١٥٩.

يركن إليهم؟ فقال له سفيان: لا يا هذا، أنت منهم، ولكن الذي يبيعك الإبر لتخيط لهم هو من الراكنين»[1].

والإسلام يحض المسلم على أن لا يكون ظالماً، وألا يكون معيناً وعوناً للظالم على ظلمه، فالقرآن الكريم لا يدين الظُلام فقط، بل يدين أيضاً أعوانهم وأتباعهم الذين يمثلون الأدوات، التي تنفذ ظلم الظالم بصوره وأشكاله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴾ (القصص:٨).

- نصرة المظلوم:

الظلم سلوك لا أخلاقي ترفضه النفس البشرية، وتأباه الفطرة السليمة، لذلك ليس غريباً أن يحارب هذا السلوك في كل المجتمعات دون استثناء، فهذه قريش في الجاهلية، تعقد حلفين لرد المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم والأخذ للقوي من الضعيف، وهذه الأحلاف هي[2]:

- حلف المُطَيِّبِينَ:

تأسس هذا الحلف عندما حاولت قريش أن تأخذ من بني عبد الدار الحجابة، وهي خدمة الكعبة، واللواء وهو حمل اللواء في الحروب، والسقاية وهي سقي الماء للحجيج، فاختلفت الآراء، وتفرقت قريش، فاجتمع أنصار بني عبد الدار، وأخرجوا قصعة مملوءة طيبًا، وغمس الحضور أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا، على نصرة بني عبد الدار والمظلومين من بعدهم، ثم مسحوا الكعبة

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٥.

(٢) www.saaid.net/Minute/266.htm.

بأيديهم توثيقاً على أنفسهم فسموا: «المُطَيِّبِينَ»، ثم اتفقوا فيما بعد على أن تكون الرفادة والسقاية لبني عبد مناف، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار، واستمر الأمر على ذلك، ولم يشهد الرسول ﷺ هذا الحلف.

- حلف الفضول:

شارك فيه الرسول ﷺ، حيث اجتمعت قريش في دار عبد الله بن جدعان، لشرفه وسنه، فتحالفوا واتفقوا على نصرة المظلوم ورد المظالم إلى أهلها، وسمي ذلك الحلف: «**حلف الفضول**»، وكان سبب عقد حلف الفضول، أن رجلاً قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الغريبُ أهل الفضل في مكة، فخذله فريق، ونصره الآخر، فكان الحلف، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه مال الغريب، فدفعوه إليه.

وقد قال رسول الله ﷺ في هذا الحلف: «**شَهِدْتُ حِلْفَ المُطَيِّبِينَ** (يقصد حلف الفضول، فهم في الأصل من جماعة المطيبين) **مَعَ عُمُومَتِي وأنا غُلامٌ، فَمَا أحِبُّ أنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وإني أنْكُثُهُ**»[1]. وقال أيضًا: «**لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أحِبّ أنّ لِي بِهِ حُمْرَ النّعَمِ، وَلَوْ أدْعَى بِهِ فِي الإسلام لأجَبْت**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد، رقم ١٥٦٧.

(٢) ابن هشام، ١/١٣٣.

ونصر المظلوم ورفع الظلم عنه فرض كفاية، رغم أن جميع المسلمين مخاطبون بذلك وهو الراجح، «ويتعين أحياناً على من له القدرة عليه وحده، إذا لم يترتب على إنكاره مفسدة أشد من مفسدة المنكر، فلو علم أو غلب على ظنه أنه لا يفيد سقط الوجوب، وبقي أصل الاستحباب بالشرط المذكور، فلو تساوت المفسدتان تخير، وشرط الناصر أن يكون عالماً بكون الفعل ظلماً، ويقع النصر مع وقوع الظلم وهو حينئذ حقيقة، وقد يقع قبل وقوعه كمن أنفذ إنساناً من يد إنسان طالبه بمال ظلماً وهدده إن لم يبذله، وقد يقع بعد، وهو كثير»[1].

وما أحوجنا في واقعنا المعاصر إلى مثل هذه الأحلاف! وبهذا الأسلوب الراقي والحضاري لمواجهة الظلم، الذي شاع بصوره وأشكاله المختلفة في جوانب حياتنا كلها، وذلك من أجل نصرة المظلوم وردع الظالم ورد الحقوق إلى أهلها، خصوصاً أن عنجهية الظلمة وغرورهم قد لا يردعها عقوبة آجلة ليوم البعث والنشور، وربما لا يزجر القانون الظالمين ويمنعهم عن ظلمهم، ولكنهم قد يرتدعوا إذا ما وجدوا أن ضحيتهم عزيزة المنال، وأن افتراسها قد يؤدي إلى هلاكهم، فالظلمة يتجاوزون الحد ما لم يروا ما يمنعهم أو يردعهم من ذلك، وقد قيل: «فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفاً، لما أقدم على الظلم»[2].

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، ص١١١.

(٢) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد، مرجع سابق، ص٤٢.

وفي هذا يقول الشاعر قريط بن أنيف العنبري:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
لكن قومي -وإن كانوا ذوي نفر- ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا ... شنوا الإغارة فرسانا وركبانا

ويرى الماوردي أن من طباع الناس المنافسة والمغالبة والتظالم، ولا يمكن أن يمنع ذلك إلا علّة معينة كما أشار المتنبي[1]:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس، فإن ... تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

والعلة المانعة من الظلم هي واحدة مما يلي[2]:

- العقل؛ الدين؛ السلطان؛ العجز.

وأشد هذه الأربعة زجراً هو السلطان، وفي ذلك يقول الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام: «**السُّلْطَانُ ظِلُّ اللَّهِ فِي الأَرْضِ، يَأْوِي إِلَيْهِ كُلُّ مَظْلُومٍ**»[3]، و«**إِنَّ اللَّهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ**»[4].

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، مرجع سابق، ص١٣٧.

(٢) الماوردي، أدب الدنيا والدين، المرجع السابق، ص١٣٧.

(٣) صحيح وضعيف الجامع الصغير وزياداته، حديث رقم ٧٠٩٥.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، م٥، ص١٧٢؛ انظر: الماوردي، أدب الدنيا والدين، مرجع سابق، ص١٣٧؛ وينسب القول لسيدنا عثمان بن عفان ﷺ.

ويؤكد الشرع الحنيف ضرورة نصرة المسلم لأخيه المسلم في حال تعرضه للظلم، فلا يجب أن يُترك المسلم مع من يضره أو يؤذيه، بل لا بد من نصره والدفاع عنه إن كان مظلوماً، ولا بد من الأخذ فوق يديه وحجزه ومنعه من الظلم إن كان ظالماً، وهذا هو مبدأ النصرة في الإسلام، الذي يقوم على أسس ثلاثة رئيسة هي[1]:

- الوقوف في وجه الظالم وكف يده.
- استنهاض المظلوم ليدافع عن نفسه.
- مطالبة بقية المسلمين بالتدخل لمنع وقوع الظلم.

وقد أكد رسول الله ﷺ مبدأ النصرة والتناصر هذا بين المسلمين، إذ يقول ﷺ: «انصر أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ»[2].

وقال ﷺ: «إِنَّهُ لا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ»[3].

ويروي البراء بن عازب، رضي الله عنه، قال: أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ بِسَبْعٍ وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ، فَذَكَرَ: «عِيَادَةَ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعَ الْجَنَائِزِ، وَتَشْمِيتَ الْعَاطِسِ، وَرَدَّ السَّلامِ، وَنَصْرَ الْمَظْلُومِ، وَإِجَابَةَ الدَّاعِي، وَإِبْرَارَ الْمُقْسِمِ»[4].

---

(١) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، مرجع سابق، ص١٦٢-١٦٤

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه ابن ماجه، حديث رقم ٢٤٢٦.

(٤) أخرجه البخاري.

وعن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، مرفوعاً، قال رسول الله ﷺ: يقول رب العزة: «**وَعِزَّتِي وَجَلالِي لأَنْتَقِمَنَّ مِنَ الظَّالِمِ فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ، أَوْ فِي آجِلِهِ، وَلأَنْتَقِمَنَّ مِمَّنْ رَأَى مَظْلُومًا يُظْلَمُ، فَقَدَرَ أَنْ يَنْصُرُهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ لَهُ**»[1].

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اضْمَنُوا سِتَّ خِصَالٍ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ. قَالُوا: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لا تَظْلِمُوا عِنْدَ قِسْمَةِ مَوَارِيثِكُم، وَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَلا تَجْبُنُوا عِنْدَ قِتَالِ عَدُوِّكُمْ، وَلا تَغُلُّوا غَنَائِمَكُمْ، وَامْنَعُوا ظَالِمَكُمْ عَنْ مَظْلُومِكِمْ**»[2].

وقال الشاعر أحمد بن مشرف التميمي:

وخذ بيد المظلوم قد حق نصره ... ولا تترك الباغي معيثاً فاسداً

وإذا تغاضى الناس أفراداً وجماعات عن ردع الظالم، ولم يمنعوه من ظلمه، فإن الله تعالى يوشك أن يعمهم بعقاب من عنده: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ لَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ...**»، وفي لفظ: «**... إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ؛ وَفِي لَفْظٍ: مِنْ عِنْدِهِ**»[3].

ويرى بعضهم أن السكوت عن الظلم هو في واقع الأمر أسوأ من الظلم نفسه، ومن يشاهد الظلم ولا يمنع وقوعه، هو أكثر إثماً ممن يمارسه، وفي ذلك

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، حديث رقم ١٠٦٥٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير، حديث رقم ٨٠٨٢.

(٣) أخرجه أحمد، حديث رقم ٥٣، والترمذي حديث رقم ٢١٦٨، انظر: محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٥م).

يقول «مارتن لوثر كينج»: «المصيبة ليست في ظلم الأشرار، بل في صمت الأخيار».

ويشير الشرع الحنيف إلى أن الظلم أصلاً لا يجب أن يوجد في المجتمع المسلم، وإن وجد، فلا بد من اجتثاثه: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

لا شك أن رد الظلم والانتصار من الظالم بمثل فعله، هي من الأمور الشرعية المنصوص عليها، يقول المولى عز وجل: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (النساء:١٤٨). وفي موضع آخر من الكتاب العزيز، يقول عزّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ (الشورى:٣٩). فالمسلم يكره ويأنف الذلّة والصغار لنفسه ولإخوانه من المسلمين، وقد قيل:

فلم أرَ مثل العدل للمرء رافعاً ... ولم أرَ مثل الجور للمرء واضعاً

إنّ تجنب الظلم والابتعاد عنه أمرٌ محمود ومطلوب شرعاً، «فعَن ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رضي الله عنه عَلَى الْيَمَنِ، قَالَ: **إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ**

---

(١) أخرجه البخاري.

لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»(١)، وقد قال ابن رجب: «من سلم من ظلم غيره، وسلم الناس من ظلمه، فقد عوفي، وعوفي الناس منه»(٢)، وسُئِل أحد الصالحين: كم بيننا وبين الله؟ قال: دعوة مظلوم(٣)، وقد قيل:

إياك من عسف الأنام وظلمهم   واحذر من الدعوات في الأسحار

لقد كتب الله تعالى على نفسه أن يكون نصيراً للمظلومين، ووعد بنصرة المظلوم والاستجابة لدعوته عاجلاً أو آجلاً: «ثَلاثٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ»(٤)، وعن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لَهُنَّ، لا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ»(٥)، ورحم الله من قال:

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) نايف الحمد، ظلمات الظلم، مرجع سابق، ص٨٨.

(٣) http://www.alukah.net/Social/0/41139/#ixzz2Sv0kFKdN.

(٤) سنن أبي داود، حديث رقم ١٥٣٦.

(٥) أخرجه ابن ماجه.

كنت الصحيح وكنا منك في سقم فإن سقمت فإنا السالمون غدا

دعت عليك أكفّ طالما ظلمت ولن ترد يد مظلومة أبدا

وكان معاوية ﷺ يقول: «إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصراً إلاّ الله»[1]. وقيل: «اتق الله فيمن لا ناصر له إلاّ الله»[2]، وقيل شعراً:

أدِّ الأمانة والخيانة فاجتنب واعدل ولا تظلم يطب لك مكسب

واحذر من المظلوم سهماً صائباً واعلم بأن دعاءه لا يحجب

وإذا رأيت الرزق ضاق ببلدة وخشيت فيها أن يضيق المكسب

فارحل فأرض الله واسعة الفضا طولاً وعرضاً شرقها والمغرب

وقال ابن القيم، رحمه الله تعالى: «لا تحتقر دعاء المظلوم، فشرر قلبه محمول بعجيج صوته إلى سقف بيتك، ويحك!!!، نبال أدعيته مصيبة، وإن تأخر الوقت، قوسه قلبه المقرح، ووتره سواد الليل، وأستاذه صاحب «لأنصرنك ولو بعد حين»، وقد رأيت ولكن لست تعتبر، احذر عداوة من ينام وطرفه باك، يقلّب وجهه في السماء يرمي سهاماً ما لها غرض سوى الأحشاء منك»[3].

وإذا كانت الحكومات والجماعات تحاول كف العدوان الظاهر ومنع الظلم البين بين الناس، فإن هناك صوراً وألواناً من آفة الظلم الخفي، لا تستطيع

---

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٣) نايف الحمد، ظلمات الظلم، مرجع سابق، ص٨٨.

أي حكومة أو جماعة أن تدفعها أو تمنعها، «فالزور المموه، والباطل المزيف، والفساد الملون بصبغ من الإصلاح ونحو ذلك مما يرتكبه أرباب الشهوات» لا يمكن للحكومة أن تكتشفه، فكيف يمكن للحكومة «الاطلاع على خفيات الحيل، وكامنات الدسائس، ومطويات الخيانة، ومستورات الغدر» حتى تقوم بدفعها، وتمنع وقوعها؟[1]

لا شك أن الظلم الخفي أكثر خطورة وفتكاً بالأفراد والمجتمع من الظلم البيّن والظاهر، فاستغفال العباد والمكر والغدر بهم، وأخذهم على حين غرة بالحيلة تارة والدس تارة أخرى، للإيقاع بهم وغصب حقوقهم وسلبهم، بهدف إشباع شهوة أو تحقيق رغبة، إنما هو قمة الظلم والعسف، وهذا النوع من الظلم قد يمارسه أفراد وجهات متنفذة سياسياً أو اجتماعياً لا ترغب في انكشاف أمرها. لذلك ولمكافحة هذا الظلم، عمل بعض الخلفاء على إيجاد ولاية للمظالم للنظر فيها؛ لأن ذلك أمر جليل يسعى لإنصاف الظالم من المظلوم ويمنع التجاحد بين الناس بهيبة السلطان وقوته، ويجب فيمن يتولى ولاية المظالم أو ديوانها، أن يكون على قدر عال من القدرة والعفة والهيبة والورع.

وقد كان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أول من خصص للمظالم يوماً للنظر فيها، وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، أول من ندب

---

(١) فهمي جدعان، أسس التقدم ...، مرجع سابق، ص١٩٤.

نفسه من الخلفاء للنظر في المظالم وفق أسس الشرع الحنيف، وجلس لولاية المظالم من خلفاء بني العباس المهدي والهادي والرشيد والمأمون والمهتدي[1].

ويغطّي النظر في المظالم عشرة جوانب حياتية رئيسة هي[2]:

- تعديات الولاة على الرعية.
- جور العمال في الأموال.
- أعمال كتّاب الدواوين.
- تظلم المسترزقة.
- رد كل ما هو مغتصب من أملاك.
- مظالم الأوقاف.
- تنفيذ ما عجز القضاء عن تنفيذه.
- تنفيذ ما عجز المحتسب عن تنفيذه.
- الإخلال بالعبادات الظاهرة.
- فض النزاعات بين المتشاجرين والمتنازعين.

والانتصار من الظالم للمظلوم هو بمثابة إعادة الأمور إلى نصابها، وتحقيق العدل، الذي هو غاية المجتمع ووسيلته لتحقيق أهدافه والارتقاء في سلم الحضارة، وهذا ما يفسر ربط الشرع الحنيف إيمان الفرد بحبه للآخرين، فلا إيمان لمن يخوض في عرض أخيه المسلم، أو يظلمه، أو يحطّ من قدره، أو يسيئ

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م) ص٧٧-٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص٨٠-٨٣.

لسمعته، أو يلحق به أي نوع من أنواع الأذى الجسمي أو المعنوي: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[1].

وربط اكتمال الإيمان بحب المسلم لأخيه المسلم قضيةٌ غاية في الخطورة، لأنها تعني أن المجتمعات الإنسانية عامة والإسلامية خاصة تواجه خطر الانهيار والدمار والاندثار، إذا ما تفشت فيها الكراهية وانتشرت الأحقاد وعم الحسد والبغضاء، وجفت ينابيع الرحمة من القلوب، ففي هذه الحالة يصبح المجتمع أفراداً وجماعات أعداءً لأنفسهم، لأنهم سلّطوا على بعضهم، وبذلك يأتي الدمار والخراب لهذه المجتمعات من داخلها، ولعل هذا أحد أسرار الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية البائسة، التي تعيشها المجتمعات الإسلامية المعاصرة، فالظلم والفساد المستشريان في هذه المجتمعات، نشرا فيها ثقافة الحقد والكراهية، بدلاً من ثقافة الحب والأخوّة، وجذّرا فيها العصبية والجهوية، فتحاسد الناس وتباغضوا، وأصبح كل فرد فيها عدواً للآخر، يعمل على أذيته وإفشاله، وأصبحت أغلب المؤسسات في هذه المجتمعات شكلاً بلا مضمون، وأفرغت كل أنشطتها وفعالياتها من محتواها، ففقدت معناها، ولم تحقق أهدافها، فأضافت فشلاً إلى فشل، وهكذا ضعفت هذه المجتمعات، وأصبحت القصعة التي تتوالى عليها الأيدي، لتعبث بها وتمارس عليها كل صنوف الاستغلال والإذلال[2].

---

(١) متفق عليه؛ انظر: أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م) ١٠٣/٢.

(٢) عادل صادق، كيف تصبح عظيماً (الأسكندرية: مؤسسة حورس الثقافية، ١٩٩٠م) ص٢٦٧.

وهكـذا، فـإن ضـعف المجتمعـات الـداخلي، يجعلهـا مهيّـأة للاسـتغلال والسيطرة مـن قبـل الآخـرين مـن الخـارج، وهـذا يفـتح شـهية أعـدائها، الـذين سرعان ما ينقضوا عليها، لافتراسها والسيطرة عليها، وهذه هي حالة القابلية للاستعمار[1]، وهذه تعني أن القوى الخارجية تستفيد من حالة ضعف المجتمع لتمارس عليه مزيداً من الاستغلال والابتزاز لخدمة مصالحها، وهكذا يجتمع ويتضافر على المجتمع الظلم الداخلي والظلم الخارجي فيقودانه إلى ظلمات الانحطاط والفقر والتخلف وإلى مزيد من الضعف والرضوخ.

- أنواع الظلم:

تتعدد أنواع الظلم وتختلف باختلاف معايير تصنيفها، وبتنوع وتباين مسالك البشر باختلاف أحوالهم وثقافاتهم، فنسمع بالظلم الاجتماعي، والظلم السياسي، والظلم الاقتصادي...الخ، وهناك ظلم ذوي القربى، وظلم الأغراب، ومن الشائع ظلم الآخر وظلم النفس.

ويذهب بعضهم إلى تقسيم الظلم إلى: ظلم قولي يتمثل في ظلم الآخر باللسان، وظلم عملي وهو غصب حقوق الآخرين، وهناك ظلم اعتقادي يعني أن يشرك مع الله تعالى آلهة أخرى، وظلم معرفي ويعني التوجه لغير الله تعالى في السؤال[2]، ويذهب الشيخ المطيري للقول: إن هناك ثلاث صور للظلم هي[3]:

---

(١) مـالك بـن نبي، شـروط النهضـة، ترجمـة عمـر مسـقاوي وعبد الصـبور شـاهين (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٧م) ص١٥٦.

(٢) abolhoda.org/www/pdf/muhadrat/wensday27-1-2010.

(٣) حاتم المطيري، تحرير الإنسان...، مرجع سابق، ص ١١٤-١١٨.

١- الظلم الاقتصادي:

هذا النوع من الظلم يمارسه من يملك أسباب القوة من أصحاب المكانة والجاه والتجار والأغنياء في معاملاتهم الاقتصادية المختلفة، فيغصبون حقوق الفقراء والضعفاء، وفي وقتنا الحاضر يستشري هذا الظلم ليخلف مئات الملايين من الجوعى والمعدمين والفقراء، الذين هم ضحايا سياسات الاستغلال والتبعية والعولمة، التي يمارسها الأقوياء والأغنياء، دولاً وأفراداً، ومن أهم صور الظلم الاقتصادي الشائعة في وقتنا الحاضر ما يلي[1]:

- غياب العدالة وسوء توزيع الدخول والثروات وزيادة الأغنياء غناً والفقراء فقراً.

- الاحتكار والارتفاع غير المبرر للأسعار وضعف الانسجام بين الرواتب والأجور وتكاليف المعيشة.

- الغش وتطفيف الميزان والتزوير.

- الرشوة والاختلاس والاعتداء على المال العام وأموال (الغير) دون حق شرعي.

- الكسب غير المشروع.

- خيانة الأمانة وضياع الحقوق.

---

(١) WWW.DARELMASHORA.COM

- الفساد والمحسوبية وغياب تكافؤ الفرص بين الناس.
- القوانين الظالمة، التي لا تنصف العامل والموظف من صاحب العمل.
- التعامل بالربا.
- هزالة منظومات التقاعد والتكافل والتضامن الاجتماعي.
- استشراء مشكلات البطالة والفقر.

ومن صور هذا الظلم، التي عرضها القرآن الكريم ما يلي[1]:

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۝ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الشعراء:١٨١-١٨٣)، ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ (المطففين:١-٤)، ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (هود:٨٥).

٢- الظلم الاجتماعي:

تتعدد صور وأشكال هذا النوع من الظلم، ولكن أكثرها شيوعاً ظلم اليتامى والنساء والفقراء والضعفاء، وجعل المولى عز وجل القتال في سبيل حماية هذه الفئات المستضعفة من الظلم، أياً كان مصدره، كالقتال في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ

---

(١) حاتم المطيري، تحرير الإنسان...، مرجع سابق، ص ١١٤-١١٨

وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ٧٥).

٣- الظلم الطبقي:

أبطل الإسلام الحنيف كل قيم الجاهلية الظالمة، التي تفرق بين الإنسان وأخيه الإنسان على أساس طبقي، فهؤلاء قوم نوح يخاطبونه قائلين: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ (الشعراء: ١١١)، فيرد عليهم نوح، عليه السلام، قائلاً: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود: ٢٩-٣١).

وحذر المولى تعالى رسوله الكريم محمداً، عليه الصلاة والسلام، من الانصراف والابتعاد عن الضعفاء والفقراء لكسب رضا المستكبرين، فقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنعام: ٥٢)، وقد ورد في صحيح مسلم، أن سادة قريش قد طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم مجلساً خاصاً بهم لا يحضره الضعفاء والدهماء من الناس كبلال الحبشي وعمار بن ياسر وصهيب

الرومي وابن مسعود...الخ، رضي الله عنهم، حتى لا يجترئ هؤلاء على الملأ، وحتى يتسنى لهؤلاء السادة والأشراف أن يستمعوا لدعوته إذا أقصى الضعفاء عنه، فحذره المولى عز وجل من قبول طلبهم وأنزل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف:٢٨).

وعاتب المولى عز وجل رسوله الكريم عندما انصرف عن دعوة ابن أم مكتوم الأعمى والضعيف من أجل دعوة الوليد بن المغيرة السيد والشريف في قريش، فقال في شأنهما: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ (عبس:١-١٠).

يمكن إضافة نوع رابع لأنواع الظلم الثلاثة المذكورة آنفاً، وهو الظلم السياسي، الذي يعتبر في وقتنا الحاضر من أكثر أنواع الظلم شيوعاً وأكثرها دماراً وفتكاً بالشعوب والأفراد، وهذا النوع من الظلم تجسده بصورة رائعة قصة الطاغوت فرعون، صاحب الملك والسلطان، التي وردت في عدة مواضع في

القرآن الكريم، فكانت بمثابة تنبيه متكرر ومستمر لولاة أمور الناس ولأصحاب الملك والسلطان، بضرورة الابتعاد عن الظلم والاستبداد والفساد، يقول رب العزة: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص:٣٧-٤٠).

ولعل دراسات الصحفي الفلسطيني عادل البشتاوي تلقي أضواء كاشفة عن محاربة الظلم في وقتنا الحاضر، فقد ركز فيها على الظلم في المجال السياسي، وصدرت هذه الدراسات في كتابين[١]، عرض فيهما الباحث بشكل تفصيلي للظلم السياسي بصوره وأشكاله المختلفة والذي تمارسه الأنظمة والقوى المتنفذة في عالمنا المعاصر، للمحافظة على بقائها واستمرارية وجودها أولاً، ولتحقيق مصالحها ثانياً، ضاربة في سبيل ذلك بعرض الحائط بكل القيم الأخلاقية والإنسانية وحقوق الإنسان، وبطرق لا تقل بؤساً عن أساليب عصابات المافيا والقراصنة[٢].

---

(١) انظر: عادل البشتاوي، تاريخ الظلم العربي في عصر الأنظمة الوطنية، مرجع سابق.

(٢) انظر: عادل البشتاوي، تاريخ الظلم الأمريكي وبداية زمن الأفول الإمبراطوري المديد (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧م).

يقول البشتاوي في كتابه تاريخ الظلم العربي: «وخلال ستين عاماً عاشت الأمة جحيم ظلم أذاقتها الأنظمة كل نكهة منه: ظلم باسم الحرب على الإرهاب، وظلم باسم الحرب على المتشددين، وظلم باسم الدفاع عن الدين، وظلم باسم الوحدة وباسم التقدمية وباسم الوطنية وباسم القومية وباسم الاشتراكية وباسم الحزب ... كان من ينادي بالحرية وحكم القانون يتهم بالعمالة للاستعمار، وذهب الاستعمار فصار يتهم بأنه عميل للإمبريالية، ولم يعد لهذا الاتهام معنى، فصار يتهم بأنه شيوعي، وسقطت الشيوعية فصار يتهم بالإرهاب»[1].

على صعيد آخر، يذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى القول بوجود ظلم مطلق وهو الإشراك بالله تعالى وكل ما يدور في فلك ذلك من ذنوب، وهناك ظلم مقيد ويشمل ظلم الآخر وظلم النفس[2]، وفي موقع آخر يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن الظلم «يكون في ترك واجب أو فعل محرم، وقد يجمع الأمرين»، من هنا يرى أن الظلم نوعان، هما[3]:

- تفريط في الحق.
- تعد للحد ومجاوزته.

---

(١) عادل البشتاوي، تاريخ الظلم العربي في عصر الأنظمة الوطنية، مرجع سابق، ص١٠-١١.

(٢) أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوي، مرجع سابق، ٦٥/٧-٧٨.

(٣) ابن تيمية، المرجع السابق، ١٨٣/٨.

والتفريط في الحق هو ترك ما يجب للغير مثل عدم قضاء الديون أو رد الأمانات إلى أهلها، أما تعد الحد فيقصد به الاعتداء على الآخر بالقتل أو غصب المال، لذلك يقول الرسول ﷺ: «**مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ**»[1]، فجعل تأخير دفع الحق مع القدرة على ذلك ظلماً، فكيف إذا لم يدفع!!![2].

وفي الحديث النبوي الشريف، عن أنس بن مالك، رضي الله تعالى عنه، قال رسول الله ﷺ: «**الظُّلْمُ ثَلاثَةٌ: فَظُلْمٌ لا يَتْرُكُهُ اللَّهُ، وَظُلْمٌ يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لا يُغْفَرُ، فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ لا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ فَيَقْتَصُّ اللَّهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ**»[3].

وقد لخصت هذه الأنواع كالآتي[4]:

- ظلم لا يغفر.
- ظلم لا يترك.
- ظلم لا يطلب.

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوي، مرجع سابق، ١٨٣/٨

(٣) الألباني، السلسلة الصحيحة (الرياض: مكتبة المعارف، ١٩٧٥) ج٤، حديث رقم ١٩٢٧.

(٤) شهاب الدين الأبشيهي، مرجع سابق، ص١٦٢.

فالظلم الذي لا يغفر هو الإشراك بالله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٤٨)، فأعظم حقوق الله تعالى على عباده هو عبادته وعدم الإشراك به شيئاً، فمن أدى هذا الحق وعبد الله تعالى وحده مخلصاً له فقد قام بأعظم العدل، ومن كان غير ذلك، فقد جار وظلم[١].

وهذا النوع من الظلم موجب لعقاب الله تعالى في الدنيا ويوم القيامة، وإذا ما رافق الشرك بالله تعالى غصب للحقوق وظلم للآخرين في معاملات الأفراد لبعضهم، فإن ذلك مدعاة لهلاك المجتمع: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران: ٢١).

وهذا يعني أن الله تعالى لا يعجل هلاك الأمم لمجرد كونها تشرك به سبحانه، ما دام أن الحكام لا يظلمون الرعية، والناس لا يتظالمون فيما بينهم، وطالما أن أفراد المجتمع أو الأمة يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح وعدم الفساد، وفي ذلك يقول التهامي: «إن الله تعالى لا يظلم أحداً بسلب نعمة أو تسليط نقمة، وإنما عقاب لهم لكفرهم وبغيهم وفسادهم، فإذا انتشر الظلم في الحكام وعم الجهل وانحطت الأخلاق في الدولة أو الأمة، تسربت فيها الفوضى ودب إليها الانحلال، وهذا هو الشأن في كل عصر وأمة»، يقول

---

(١) عبد العزيز المحمد السلمان، موارد الظمآن لدروس الزمان، ط٣ (الرياض: ١٤٢٤هـ) ٥٥٣/٣.

المولى عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود:١١٧)[١]، ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس:٤٤)، وقيل: «اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك»[٢].

وأما الظلم الذي لا يترك، فهو ظلم الآخر وغصب حقه، وفي هذه الحالة يأخذ الظلم صورة علاقة غير متكافئة بين طرفين أحدهما يملك أسباب القوة والآخر ضعيف مستضعف، حيث يوظّف الطرف الأول أسباب قوته في غصب الطرف الثاني حقه، وفي ذلك ورد عن السيدة عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»[٣].

وورد عن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ**»[٤].

---

(١) انظر: التهامي نفرة، سيكولوجية القصة في القرآن (الجزائر: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧١م) ص١٨٨؛ وانظر أيضاً: علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية.. عوامل النهوض وأسباب السقوط (بيروت: دار البيارق، ١٩٩٩م) ص٨٣٠.

(٢) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، مرجع سابق، ص١٦٣.

(٣) أخرجه البخاري، حديث رقم ٢٤٥٣.

(٤) أخرجه مسلم، حديث رقم ١٦١٠.

ومن أشد حالات هذا الظلم وأكثرها مقتاً، ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وبالذات ظلم الضعفاء من عباد الله، وظلم الإنسان لمن دونه منزلة أو مكانة، كظلم السلطان لرعيته أو ظلم الرئيس أو الأمير لأتباعه، وقد قيل: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه»، وقيل أيضاً: «من طال عدوانه زال سلطانه»[1]،

وظلم السلطان يغتال في الأمة كل معاني العزة والكرامة، ويحملها على الانحراف عن مسار الشرع الحنيف، وقد روى أبو سعيد الخدري، رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ، وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ جَائِرٌ**»[2]، وقد روي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بشرار الناس؟** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **مَنْ أَكَلَ وَحْدَهُ، وَمَنَعَ رِفْدَهُ، وَجَلَدَ عَبْدَهُ.** ثم قال: **أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **مَنْ لا يُرْجَى خَيْرُهُ، وَلا يُؤْمَنُ شَرُّهُ،** ثم قال: **ألا أنبئكم بشر من ذلك؟** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **مَنْ يُبْغِضُ النَّاسَ وَيُبْغِضُونَهُ**»[3]، وروي أن عيسى بن مريم، عليه السلام، قام خطيباً في بني إسرائيل فقال: «لا تكافئوا ظالماً فيبطل فضلكم»[4].

---

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، مرجع سابق، ص١٦٣.

(٢) أخرجه الترمذي.

(٣) أخرجه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب، حديث رقم١٦٧٢، ط٥ (الرياض: مكتبة المعارف).

(٤) الماوردي، أدب الدنيا والدين، مرجع سابق، ص١٤٣.

وقد أوصى الرسول ﷺ المسلمين، بضرورة إعادة الحقوق لأصحابها في الدنيا قبل الآخرة، وإلا ستبقى ديناً في أعناقهم إلى يوم الدين، ليدفعوها من حسناتهم، وفي ذلك يروي أبو هريرة، رضي الله تعالى عنه، عن الصادق المصدوق، عليه السلام، أنه قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ، قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[١].

وفي حديث آخر يقول، عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يَكُونَ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**»[٢].

وظلم الآخر موجب ومعجّل للعذاب والهلاك، وهذه سنة من سنن الله تعالى على مر العصور، فقد روى أبو موسى، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»،

---

(١) أخرجه مسلم، حديث رقم ٢٥٨١.

(٢) أخرجه البخاري، حديث رقم ٢٤٤٩.

قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:١٠٢)[1]، وهذا يؤكد مدى خطورة هذا النوع من الظلم على الأفراد والمجتمعات والحياة الإنسانية عامة، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلا عَدْلاً، حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ»[2]، وفي حديث آخر، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: « مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنْ عِصَابَةٍ، وَفِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ، فَقَدْ خَانَ اللَّهَ، وخانَ رَسُولَهُ، وخانَ الْمُؤْمِنِينَ»[3].

استند شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، على تفسير الإمامين الرازي والقرطبي للآية (١١٧) من سورة هود: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، ليقول مقولته الشهيرة: «الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة»[4]، ويقول أيضاً: «وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك مع أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت

---

(١) أخرجه البخاري، وهو متفق عليه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين.

(٤) أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ٦٣/٨.

مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وقد قال رسول الله ﷺ: «**ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم**»، فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفوراً له مرحوماً في الآخرة، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة»[1].

وقد أشارت السنة النبوية الشريفة لهذا المعنى بصورة بليغة، حيث يقول رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة، عَدْلُ سَاعَةٍ أفضل مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً، قِيَامَ لَيْلِهَا، وَصِيَامَ نَهَارِهَا، يا أبا هريرة، جَوْرُ سَاعَةٍ فِي حُكْمٍ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ عند الله عز وجل من معاصي سِتِّينَ سَنَةً**»[2].

ورحم الله تعالى الشاعر أبا الفتح البستيّ القائل[3]:

عليك بالعدل إن وليت مملكة ... واحذر من الجور فيها غاية الحذر
فالملك يبقى على عدل الكفور ... ولا يبقى مع الجور في بدو ولا حضر

إن نتائج وتداعيات هذا النوع من الظلم خطيرة، ليس فقط في المكان الذي يحدث فيه، بل إنه يهدد الحياة الإنسانية في كل الأماكن الأخرى؛ لأنه

---

(١) ابن تيمية، المرجع السابق، ٨/١٤٦.

(٢) أخرجه الأصفهاني، ضعيف الترغيب والترهيب، حديث رقم ١٣١٨.

(٣) انظر: عبد العزيز المحمد السلمان، موارد الظمآن، مرجع سابق، ٣/٥٥٣.

يشكل خطراً على منظومات القيم والأخلاق الإنسانية في عموم البسيطة، يقول ﷺ فيما يرويه ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما: «**يَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَدْلٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً، وَحَدٌّ يُقَامُ فِي الأَرْضِ بِحَقِّهِ أَزْكَى مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا**»[1]، وفي هذا المعنى يقول «مارتن لوثر كنج»: «الظلم أينما كان، يهدد العدل في كل مكان».

وقد ركزت كثير من آيات القرآن الكريم وفي مواضع مختلفة على ضرورة تجنب الظلم، الذي لا يغفر، والظلم الذي لا يترك، وذلك من خلال العمل بالوصايا العشر التي جاءت في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام:١٥١-١٥٣).

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، حديث رقم ١١٩٣٢.

يقول الشيخ المطيري: إنه جاء في هذه الآيات أعلاه وصيتان في حق الله تعالى، وثماني وصايا جاءت من أجل الإنسان، أما الوصايا، التي في حق الله تعالى فهي[1]:

- التوحيد.
- اتباع شريعة الحق، التي نزلت على محمد ﷺ.

وأما الوصايا، التي في حق البشر فهي:[2]

- الإحسان للوالدين.
- الرحمة بالأولاد.
- عدم الاعتداء على الناس.
- تحريم الفواحش.
- الوفاء بالميزان.
- عدم أكل مال اليتيم.
- الوفاء بالعهود والعقود.
- الشهادة بالعدل.

والحقيقة أن العمل بهذه الوصايا وتطبيقها في حياة الفرد والمجتمع من شأنه أن يسد أبواب الظلم، الذي لا يغفر والظلم الذي لا يترك.

---

(١) حاتم المطيري، تحرير الإنسان وتجريد الطغيان، مرجع سابق، ص١١٨.

(٢) المرجع السابق، ص١١٨.

وفيما يتعلق بالظلم الذي لا يطلب فهو ظلم الإنسان لنفسه، وهذا النوع من الظلم هو ظلم مغفور، ويقصد به أن لا يعمل الإنسان على صلاح نفسه بعدم التقيد بما أمر الله تعالى من عبادات ومعاملات، ولا يمنعها من عمل المنكرات أو الابتعاد عما نهى الله تعالى، من فسق وفجور وعصيان وإسراف في الشهوات والتكبر.. الخ، وهذه جميعها فيه ظلم للنفس، وقد قيل: من ظلم نفسه فهو لغيره أظلم.

والحق أن أنواع الظلم الثلاثة الآنف ذكرها هي في النهاية جميعاً ظلم للنفس: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ (فاطر:٣٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن النفس فيها داعي الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له، والتعدي عليه في حقه، وداعي الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة كالزنا وأكل الخبائث، فهي قد تظلم من لا يظلمها، وتؤثر هذه الشهوات وإن لم تفعلها، فإذا رأت نظراءها قد ظلموا وتناولوا هذه الشهوات صار داعي هذه الشهوات أو الظلم فيها أعظم بكثير، وقد تصبر، ويهيج ذلك لها من بغض ذلك الغير وحسده وطلب عقابه وزوال الخير منه ما لم يكن فيها قبل ذلك، ولها حجة عند نفسها من جهة العقل والدين، يكون ذلك الغير قد ظلم نفسه والمسلمين»[1].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوي، مرجع سابق، ١٤٦/٨.

ويذهب الإمام ابن تيمية في موقع آخر للقول: إن ظلم العبد لنفسه يغطي جميع الذنوب، يقول تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (هود:١٠١)، ويقول تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل:٤٤).

- موقف وعبرة:

روي في الأثر الصالح، أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، قد زار مدينة حمص في أثناء خلافته، وكان أميره عليها في ذلك الوقت الصحابي الجليل سعيد بن عامر ﷺ فسأل عمر الناس عن أميرهم.

يقول خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ:

اسْتَعْمَلَ عَلَيْنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِحِمْصَ سعيد بن عامر بن جذيم الجمحي، فَلَمَّا قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حِمْصَ، قَالَ: يَا أَهْلَ حِمْصَ كَيْفَ وَجَدْتُمْ عَامِلَكُمْ؟ فَشَكَوْهُ إِلَيْهِ ... قَالُوا: نَشْكُو أَرْبَعًا: لا يَخْرُجُ إِلَيْنَا حَتَّى يَتَعَالَى النَّهَارُ، قَالَ: أَعْظِمْ بِهَا، قَالَ: وَمَاذَا؟ قَالُوا: لا يُجِيبُ أَحَدًا بِلَيْلٍ، قَالَ: وَعَظِيمَةٌ، قَالَ: وَمَاذَا؟ قَالُوا: وَلَهُ يَوْمٌ فِي الشَّهْرِ لَا يَخْرُجُ فِيهِ إِلَيْنَا، قَالَ: عَظِيمَةٌ، قَالَ: وَمَاذَا؟ قَالُوا: يَغْنِظُ الْغِنْظَةَ بَيْنَ الْأَيَّامِ، يَعْنِي تَأْخُذُهُ مَوْتَةٌ .

قَالَ: فَجَمَعَ عمر بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تُفَيِّلْ رَأْيِي فِيهِ الْيَوْمَ، مَا تَشْكُونَ مِنْهُ؟ قَالُوا: لَا يَخْرُجُ إِلَيْنَا حَتَّى يَتَعَالَى النَّهَارُ، قَالَ: وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ

لَأَكْرَهُ ذِكْرَهُ، لَيْسَ لِأَهْلِي خَادِمٌ فَأَعْجِنُ عَجِينِي ثُمَّ أَجْلِسُ حَتَّى يَخْتَمِرَ ثُمَّ أَخْبِزُ خُبْزِي ثُمَّ أَتَوَضَّأُ ثُمَّ أَخْرُجُ إِلَيْهِمْ.

فَقَالَ: مَا تَشْكُونَ مِنْهُ؟ قَالُوا: لَا يُجِيبُ أَحَدًا بِلَيْلٍ، قَالَ: مَا تَقُولُ؟

قَالَ: إِنْ كُنْتُ لَأَكْرَهُ ذِكْرَهُ، إِنِّي جَعَلْتُ النَّهَارَ لَهُمْ وَجَعَلْتُ اللَّيْلَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ: وَمَا تَشْكُونَ؟ قَالُوا: إِنَّ لَهُ يَوْمًا فِي الشَّهْرِ لَا يَخْرُجُ إِلَيْنَا فِيهِ. قَالَ: مَا تَقُولُ؟ قَالَ: لَيْسَ لِي خَادِمٌ يَغْسِلُ ثِيَابِي وَلا لِي ثِيَابٌ أُبَدِّلُهَا، فَأَجْلِسُ حَتَّى تَجِفَّ ثُمَّ أُدَلِّكُهَا ثُمَّ أَخْرُجُ إِلَيْهِمْ مِنْ آخِرِ النَّهَارِ.

قَالَ: مَا تَشْكُونَ مِنْهُ؟ قَالُوا: يَغْنَظُ الْغِنْطَةَ بَيْنَ الْأَيَّامِ، قَالَ: مَا تَقُولُ؟

قَالَ: شَهِدْتُ مصرع خبيب الأنصاري بِمَكَّةَ، وَقَدْ بَضَعَتْ قُرَيْشٌ لَحْمَهُ ثُمَّ حَمَلُوهُ عَلَى جَذَعَةٍ. فَقَالُوا: أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا مَكَانَكَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنِّي فِي أَهْلِي وَوَلَدِي وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ شِيكَ بِشَوْكَةٍ، ثُمَّ نَادَى يَا مُحَمَّدُ، فَمَا ذَكَرْتُ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَتَرْكِي نُصْرَتَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَأَنَا مُشْرِكٌ لا أُومِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَغْفِرُ لِي بِذَلِكَ الذَّنْبِ أَبَدًا، قَالَ: فَتُصِيبُنِي تِلْكَ الْغِنْطَةُ.

فَقَالَ عمر: الْحَمْدُ لِلَّهِ، الَّذِي لَمْ يُفَيِّلْ فِرَاسَتِي[1].

---

(١) انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله ابن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني؛ وانظر: محمود العابدي، خير جليس (عمان: دائرة الثقافة والفنون، ١٩٧٥م) ص١٤-١٥.

الفصل الثالث

القوة والترف والظلم

- تأصيل مفهوم القوة:

عرّفت القوة لغةً في المعجم الوسيط على أنها الطاقة، وتأخذ القوة أيضاً معنى الجد في الأمر وصدق العزيمة، وقد أورد القرآن الكريم مصطلح القوة في عدد من الآيات، منها على سبيل المثال لا الحصر[1]:

- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠)، أي جهزوا كل أنواع القوة المادية والمعنوية.

- ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ (البقرة:٩٣)، أي بحزم وعزم.

- ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: ٨٠)، أي لو كان لي قوة ادفع بها أذاكم أو ألجأ إلى أنصار ينصروني عليكم.

---

(١) www.muslm.net/vb/showthread.php?343071

وعرّفت القوة اصطلاحاً على أنها: «القدرة على جعل الآخرين يقومون بأشياء متناقضة مع أولوياتهم، ما كانوا ليقوموا بها لولا ممارسة تلك القدرة»[١]، بمعنى أن شخصاً ما يستخدم قوته ضد شخص آخر للقيام بأشياء رغماً عنه، ويضغط للحصول على ما يريده منه بالإكراه. وقيل أيضاً: إنها: «القدرة في التأثير على الآخرين وإخضاعهم لإرادة القوي»، فالأقوياء يفرضون ما يريدون تمشياً مع مصالحهم الخاصة[٢].

- القوة والترف:

يعني الترف، امتلاك أهم أنواع القوة، وهما قوة المال والسلطان، لذلك يربط السياق القرآني بين الترف والظلم في أكثر من موضع في الكتاب العزيز، علماً بأن مفهوم الترف لم يرد في القرآن الكريم إلا مقروناً بالقبيح من الصفات، كالكفر والفسق والظلم، وكما تبين الآيات التالية[٣]:

- ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ (الإسراء:١٦).

- ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴾ (المؤمنون:٣٣).

---

(١) digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=887254&eid=7805

(٢) www.muslm.net/vb/showthread.php?343071

(٣) عبد المجيد مزيان، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون (الجزائر: المؤسسة الوطنية للاتصال، بدون تاريخ) ص٧٤.

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ (سبأ:٣٤).

- ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ۝ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ۝ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ۝ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ۝ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ (الواقعة:٤١-٤٦).

- ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾ (الأنبياء:١١-١٢).

فالمترف شخص اكتسب نفوذاً اقتصادياً واجتماعياً في بيئته، بسبب امتلاكه قوة المال أو السلطان، وهو من خلال هذا الجاه والنفوذ يتصرف في الآخرين وما يملكون بطريقة منافية للأخلاق، إنه الظالم والطاغية والمتكبر والجبار، إنه قارون زمانه بكل الرمزية، التي أضفاها القرآن الكريم على هذه الشخصية[1].

يشكل المترفون في بيئاتهم الاجتماعية جماعة أو جماعات ذات روابط اقتصادية وعاطفية، متضامنة في تعدياتها على بقية السكان، من خلال الاستيلاء والسيطرة على جميع الوسائل الاقتصادية، واحتكار وحبس الأرزاق وجل وسائل المعاش، بمعنى أن هذه الفئة تمارس الانحطاط الأخلاقي المقترن بالانحطاط الاقتصادي والسياسي، فهم مبذرون ومكتنزون، وفي كلتا الحالتين

(١) عبد المجيد مزيان، المرجع السابق، ص٥١.

هم ظلمة متسلطون، يجسدون حال القوى الفرعونية والقيصرية والكسروية والإمبريالية، التي اعتمدت وما زالت تعتمد على القوة المادية الصرفة، في كل جوانب حياتها، وقد جاء الإسلام الحنيف بفكره وقوته الروحية الطاغية يتحدى هذه القوى ويحمل عليها ويقف في وجهها[1].

يقدم القرآن الكريم الترف القائم على الاستحواذ على حقوق الناس تعدياً، كسبب رئيس للظلم، يقول المولى عز وجل: ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ (هود:١١٦).

وهؤلاء سواء أكانوا أفراداً أم جماعات أو دولاً هم من اهتموا بجمع واحتكار كل أسباب القوة وأشكالها من عدد وعدة ومال وعلم لغصب حقوق العباد، وذلك من أجل التنعم بالحياة والانغماس في شهواتها، ومارسوا مزيداً من الاعتداء والقرصنة على حقوق الآخرين، وأخذوها دون أي وجه حق للمحافظة على مكتسباتهم، متسلحين بأسباب قوتهم، وهذا يعني أن الظلم يقع في معظمه من أهل النفوذ والقوة المترفين، وهذا ما يشير إليه العلامة ابن خلدون في مقدمته حين يقول: «ولأن الظلم يقع غالباً من أهل القدرة والقوة والسلطان، فقد شدد الشرع الحنيف في ذمه، وكرر فيه الوعيد لمن يرتكبه، لخلق وازع ديني في نفس القادر عليه لمنعه من ذلك»[2]، وفي ذلك قال عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه:

---

(١) عبد المجيد مزيان، المرجع السابق، ص٥٢

(٢) ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص٢٨٨.

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدراً

فَالظُّلْمُ مَرْتَعُهُ يُفْضِي إلى النَّدَمِ

تنامُ عَيْنُكَ والمظْلـــومُ مُنتَبِهٌ

يَدعو عَليكَ وعيْنُ اللهِ لَمْ تَنَمِ

قضت سنة الله تعالى أن تكون الفئات المترفة بتوجهاتها المادية وعلاقاتها النفعية المصلحية، وحبها للرياسة والسيادة، أحد أهم أصول البغي، والسبب في انتشار الظلم وتفشي الفساد بأشكاله المختلفة في المجتمعات الإنسانية عموماً، يقول المولى عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ (إبراهيم:٣).

وبتدقيق النظر نجد أن هذه الفئات نفسها، التي اغترت بما أنعم الله عليها من أسباب القوة، قد وقفت حجر عثرة في طريق دعوات الهداية والعودة إلى طريق الله المستقيم، التي قادها في الماضي الأنبياء والرسل، عليهم أفضل الصلاة والسلام، وما زالت هذه الفئات حتى وقتنا الحاضر- إلا من رحم الله تعالى- تعرقل عمليات الإصلاح وحركات مكافحة الظلم والفساد، التي يقودها المصلحون في بقاع الأرض شتى، يقول المولى عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٤-٣٥).

والظلمة من أهل الترف في المجتمعات الإنسانية هم صنّاع الفسق والفجور والضلال، وهم مجلبة لسخط الله تعالى وعذابه وتدميره: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء:١٦).

والظلمة المترفون في المجتمعات الإنسانية هم شيع وجماعات متعددة ومختلفة في أعدادها وأهدافها، ولكنها تتفق جميعاً على ضرورة محاربة الإصلاح والأخلاق وعلى رأسها العدل؛ لأنه يعطل مصالحها، ويوقف استغلالها وغصبها لحقوق الآخرين، وكلما ازداد عدد هذه الجماعات، استفحل الظلم أكثر في المجتمع، وتمزقت شبكة علاقاته الاجتماعية وازدادت أحوال الناس سوءاً لحساب هذه الجماعات، وهذه الفئات ذليلة في نفسها بحبها للدنيا، وذليلة للآخرين بسعيها لمتاع الدنيا الفانية من شهوات وملذات، وإن ظهرت بعكس ذلك، يقول زيد بن زين العابدين بن الحسين، وكان شجاعاً زاهداً: «ما أحبَّ أحدٌ الحياةَ إلا ذلّ»[1].

ويشير ابن خلدون إلى أن الترف يقود إلى فساد الأخلاق، الذي يفضي إلى فساد العمران ودماره، فالمترفون يقبلون على أنواع الظلم والفسوق بعد أن تكون حياة الترف والحضارة قد أفسدت أخلاقهم، وفي مرحلة لاحقة يتصارع الخلق بسبب عدم قدرتهم على تحمل الظلم وكل الموبقات والمنكرات الممارسة، فيهلك عموم المجتمع[2].

---

(١) محمود العابدي، خير جليس،...، مرجع سابق، ص٢٨.

(٢) عبد المجيد مزيان، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، مرجع سابق، ص٢٩٤.

- أشكال القوة ومصادرها:

تختلف صور وأشكال القوة، باختلاف معايير تصنيفها، فهناك القوة المادية ويقابلها القوة المعنوية، ويوجد القوة الاقتصادية والقوة العسكرية أو الخشنة، والقوة الدبلوماسية أو الناعمة، وأيضاً توجد القوة الاستراتيجية والقوة التكنولوجية، وهذه الأنواع جميعها يتم تداولها على مستوى الدول أو العلاقات الدولية، أما على مستوى الأفراد والجماعات، فتصنف القوة إلى: قوة خارجية مثل: المال والسلطان، وقوة داخلية مثل: قوة الإيمان والعلم، وبعضهم يصنفها إلى قوة مادية كالمال والسلطان، وقوة روحية كالإيمان والعلم، وقوة نفسية وتتمثل في سلامة العقل والنفس والجسد، وكذلك قوة المعرفة وقوة التواصل، والتقسيم الأكثر شيوعاً لأنواع القوة هو الذي يقسمها إلى قوة مادية وأخرى معنوية.

تشمل القوة المادية: كل من القوة الجسمية، المال، العدد أو الكثرة، العدة أو السلاح، أما القوة المعنوية فتضم: قوة السلطان أو الجاه والعلم؛ وفيما يلي عرض لهذه الأشكال[1]:

- القوة المادية:

يقصد بها القوة الجسمية أو قوة المال والموارد أو قوة الكثرة والعدد أو قوة العدة والسلاح، وعندما تهيمن هذه القوى مجتمعة أو فرادى على نفوس أصحابها من ضعاف الإيمان أو عديميه، سواء أكانوا أفراداً أو جماعات

---

(١) فضل حسن عباس، خماسيات مختارة، مرجع سابق، ص١٤٩-١٥٣.

أو مجتمعات، فيذهبوا إلى الظن بأنهم أعطوا ذلك لفضلهم على غيرهم، فيتولد لديهم شعور بالاستعلاء والاستغناء عن الآخرين، ألم يقل قارون: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (القصص:٧٨).

إن هذا الغرور يدفع هذه الفئة من الناس إلى الترف، الذي ينقلهم بدوره إلى حالة نفسية مرضية من الهوج والهوس، سمّاها القرآن الكريم بطراً، وهو حالة من الدهشة تصيب النفس من سوء احتمال النعمة، وعدم القيام بحقها، وهو أيضاً حالة من الخفة، التي تقود صاحبها إلى تجاوز الحدود الشرعية والإنسانية في تعاملاته مع الآخرين، من خلال سلب الحقوق والقرصنة بصورها وأشكالها المختلفة.

وفي عصرنا الحاضر هناك نماذج كثيرة من الأفراد والأمم، الذين اغتروا بقوتهم المادية، فاعتقدوا أن هذه القوة المادية هي كل شيء، فبغوا وطغوا، ولم يتعلموا أو يعتبروا ممن سبقهم من الأشخاص والأمم، فمن عاد، التي قالت: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (فصلت:١٥)، إلى ثمود، الذين جابوا الصخر بالواد، ثم إلى فرعون ذي الأوتاد، اغتروا بقوتهم التي منحهم إياها العزيز الجليل، فظلموا وعاثوا في الأرض فساداً، فكان الله تعالى لهم بالمرصاد، فصب عليهم العذاب صبًّا، وأذاقهم الخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ (البقرة:١٦٥)[1].

---

(١) انظر: فضل حسن عباس، المرجع السابق، ص١٥١.

- القوة المعنوية:

وتشمل السلطان والجاه والعلم، وهذه الأنواع من القوة تصيب أصحابها من ضعاف النفوس بالغرور، إلا من رحم الله تعالى؛ لأنها تولّد في أنفسهم قناعة بتجاوز حالة الضعف الإنساني في طبيعتهم، وهذا يسبب عندهم حالة من الدهشة والهوس، التي تدفعهم في ظل غياب الوازع الديني إلى تجاوز الحد في تعاملاتهم مع (الآخر) وممارسة كل أشكال الغصب والطغيان.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن قوة الإيمان بالله تعالى وتقواه، هي من أهم أنواع القوة المعنوية، التي يهملها غالباً الأفراد والجماعات، ويسقطونها من حساباتهم في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة، فقوة المال والعتاد والرجال دون تقوى الله تعالى هي ذل ومهانة وخزي وندامة: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (التوبة: ٢٥).

والقوة، سواء أكانت على صعيد الأفراد أم الدول فهي نعمة من نعم الله تعالى على أصحابها؛ وإذا ما اقترنت القوة بالإيمان، فإنها توظف في كل مجالات الخير وعمارة الأرض، أما إذا ما فصلت عن الإيمان بمعطياته وضوابطه الأخلاقية، فإنها تكون أداة من أدوات الدمار والفساد والظلم، ومما لا شك فيه أن الشعور بالاستعلاء والعظمة والغرور عند الأفراد والجماعات، والمتولد عن امتلاك أسباب القدرة والقوة، في ظل غياب الوازع الديني والضوابط الأخلاقية، يحمل على الظلم بصوره وأشكاله المختلفة.

- العنكبوتية:

بيّنت الدراسات العلمية في مجال علم الأحياء أو البيولوجيا، أن أنثى العنكبوت، بحكم طبيعتها، تقوم بنسج بيتها وليس العنكب الذكر، وقد اكتشف أن الأنثى تبدأ بذلك عند بلوغها، استعداداً للزواج، فتبني البيت ليجذب الذكر، الذي لا تساعده طبيعته على القيام بمثل هذا العمل، وتغزل أنثى العنكبوت بيتها ليكون فخاً وكميناً لكل حشرة، يقول المولى عز وجل في سورة العنكبوت: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١).

تصف هذه الآية الكريمة بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت، وكلمة الوهن تعكس قمة المعاناة والألم، التي يعيشها أهل البيت، فهو بيت هش وضعيف مادياً ومعنوياً، إذ لا يقي ساكنه أخطار الطبيعة، ولا يدفع عنه شرّ الكائنات الأخرى.. وهذه أيضاً حال من يلجأ لغير الله ليتخذ منه معيناً ونصيراً، فالحياة داخل بيت العنكبوت، تتسم ليس فقط بضعف الترابط الأسري بين الأفراد، بل أيضاً بعلاقات مصلحية مؤقتة، فإذا ما انتهت هذه العلاقات المنفعية، انقلب الأفراد أعداء يقتل بعضهم بعضاً، لذلك فهذا البيت أبعد ما يكون عن صفة البيوت، بما يفتقر إليه من أمان وسكينة وطمأنينة، فالعنكبوت الأنثى تقتل ذكرها بعد أن يلقحها وتأكله، والأبناء يأكل بعضهم بعضاً بعد الخروج

من البيض، إن هذه العلاقات الشاذة بين أفراد البيت تجعله بحق أوهى بيوت المخلوقات كافة[1].

وقد ذهب الطبري في تفسيره للآية (٤١) من سورة العنكبوت إلى القول بأن المقصود بالمثل فيها هم المشركون، الذين يتخذون آلهة من دون الله، ويطلبون نصرهم ونفعهم وقت الحاجة إليهم وعند الشدائد، فهؤلاء مثل العنكبوت في ضعفها، اتخذت بيتاً ضعيفاً لا يغني عنها شيئاً في السراء والضراء، ووجه الشبه في المثال المضروب في القرآن الكريم شديد الوضوح، فالذين يستغيثون ويلجأون للظَلَمة من البشر لقضاء حاجاتهم وحمايتهم، إنما يفعلون ذلك لتحقيق مصالح دنيوية زائلة وفانية، وبالتالي فالولاية لغير الله تعالى، هي ولاية هشة وواهية، لا تسمن ولا تغني من جوع، وهذه هي حال القوي، الذي يلجأ إليه الناس طلباً للدعم والحماية، والتسلح بأسباب القوة، ولو علم البشر الجهّال، أن الذين يلجأون إليهم من الأقوياء، هم أصحاب قوة هشة وزائلة، لما طلبوا العون إلا من الله تعالى[2].

إنّ كثيراً من الناس تخدعهم قوة المال أو قوة العلم أو قوة الحكم والسلطان، سواء أكان من يملكها فرداً أو جماعة أو دولة، فيعتقدون، نظراً لضعف إيمانهم بالله تعالى، أن هذه القوى تتحكم في أقدار الناس ومصائرهم، فهي قادرة على حمايتهم ونصرتهم وإشباع حاجاتهم ورغباتهم، فيلجأون إليها، ويدورون في فلكها، ويتذللون ويخضعون لها، ليتقوا شرها، ويكسبوا رضاها،

---

(١) www.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id

(٢) www.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id

ويحتموا في حماها، ويجتهدوا للحصول عليها، ليتسلطوا بها على رقاب البشر، قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ (نوح: ٢١)، وينسى هؤلاء في خضم سعيهم المحموم هذا، القوة الأصلية التي تخلق كل أصناف القوة، وتتحكم بها وتوجهها كما تريد، إنها قوة الله العزيز الجبار، التي لا قوة بعدها ولا قوة قبلها[1]، وما عدا ذلك فهو سراب زائل: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩).

- وهن القوة.. وقوة الوهن:

يسوق القرآن الكريم كثيراً من الحقائق والقصص للظَلَمة، أفراداً وجماعات، ممن ملكوا أسباب القوة، فطغوا وبغوا، فكانت نهايتهم اللعنة والعذاب في الدنيا والآخرة، فهذا قارون الذي كان من قوم سيدنا موسى، عليه السلام، والذي رزقه الله تعالى من الأموال ما لا يعد ولا يحصى، لكنه تنكّر لنعمة الله، وغرته نعمة المال وسطوته، ففسد وأفسد، وظلم واستكبر، فكانت نهايته مخزية، ويروي لنا القرآن الكريم القصة في سياقها البليغ والمؤثر: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ

---

(١) www.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id

مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (القصص:٧٦-٨٢).

وفي هـذا الصـدد، يشير ابن القيم إلى أربع آيات في القرآن الكريم، «تدل على أن من اتخذ من دون الله ولياً، يتعزز به، ويتكثر به، ويستنصر به، لم يحصل له به إلا ضد مقصوده. وفي القرآن أكثر من ذلك. وهذا من أحسن الأمثال، وأدلها على بطلان الشرك، وخسارة صاحبه، وحصوله على ضد مقصوده» والآيات هي[١]:

- ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٤١).

(١) www.eajaz.org/.../component/.../746-(Although-flimsiest-of-houses-c

- ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (هود: ١٠١).

- ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (مريم: ٨١-٨٢)

- ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ (يس: ٧٤-٧٥).

لقد ملأ المسلمون الأوائل الأرض عدلاً باتباعهم الكتاب العزيز والسنة الشريفة، ثم جاء الخلف فأضاعوا وضيّعوا، فأصبحت الدنيا أكبر الهم ومبلغ العلم، فانقلب العدل ظلماً، والعلم جهلاً، والحق باطلاً... وأصبحت الحياة في المجتمعات الإسلامية المعاصرة ذلاً وبؤساً بعدما كانت عزاً ومجداً: «لقد ألفنا الأدب مع الكبير ولو داس على رقابنا، ألفنا الثبات.. ثبات الأوتاد تحت المطارق، ألفنا الانقياد ولو إلى المهالك، ألفنا أن نعتبر التصاغر أدباً، والتذلل لطفاً، والتملق فصاحة، واللكنة رزانة، وترك الحقوق سماحة، وقبول الإهانة تواضعاً، والرضا بالظلم طاعة، ودعوى الاستحقاق غروراً، والبحث عن العموميات فضولاً، ومدّ النظر إلى الغد أملاً طويلاً، والإقدام تهوراً، والحمية حماقة، والشهامة شراسة، وحرية القول وقاحة، وحرية الفكر كفراً، وحب الوطن جنوناً»[1]. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد...، مرجع سابق، ص١٦٠.

الفصل الرابع
العلاقات الاجتماعية والظلم

- مقدمة:

تتحدد مكانة الإنسان في المجتمع بمقدار الفائدة التي تعود على الناس من عمله، وأسلوب علاقته بالآخرين، فعلاقة الإنسان مع الله تعالى التي يجسدها الدين، هي أصل الحياة، وأساس الخلق وغايته، وهي تقوم على الإيمان بالله تعالى وتوحيده في الأسماء والصفات، والإقرار له بالربوبية والعبودية، والعمل بما أمر، والابتعاد عما نهى، وعكس ذلك هو الشرك بالله تعالى، وهذا هو الظلم الأكبر والأعظم.

وعلاقة الإنسان مع الآخر ومع نفسه، تنبثق بكل مضامينها وأنماط سلوكها من العلاقة الأولى، التي هي الأصل، فالدين والأخلاق هما مناط التحكم في نمط ومحتوى العلاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان، والإنسان وبقية الكائنات الأخرى، وعلاقة الإنسان مع الله تعالى هي التي تشكل جوهر علاقة الإنسان بنفسه وبالآخر، حيث يدخل الدين كمكون رئيس في بنية وتركيب المنظومة الاجتماعية في صورة قيم أخلاقية، تشكل المكون الرئيس للعلاقات الاجتماعية فيه، سواء أكان ذلك على صعيد العرف أو العادات أو التقاليد أو القواعد والمبادئ الإدارية والتشريعية المعمول بها.

تتشكل علاقة الفرد بالآخر من خلال طاقته الحيوية، وفي صورة مجموعة من الدوائر الاجتماعية المتدرجة من الأقرب إلى الأبعد، فهناك دائرة الزوجة والأبناء، ثم دائرة الأقارب، فدائرة الجيران والأصدقاء، وأخيراً دائرة المعارف والبيئة الطبيعية بكل معطياتها[1].

تقرر شبكة العلاقات الاجتماعية في أي مجتمع تنظيمه وهندسته الداخلية، وهذا التنظيم الداخلي يعتمد بالدرجة الأولى على الطاقة الحيوية المكتنزة في الجسم الاجتماعي وهي التي تتولد عنها حركة المجتمع؛ وحركة المجتمع من حيث كمها، ونوعها، وأسباب إنتاجها، واتجاهاتها، هي التي يعتمد ويقوم عليها التنظيم الداخلي للمجتمع[2].

كذلك تشكل شبكة العلاقات الاجتماعية شخصية المجتمع، وتبلور رسالته، وتضبط وتنظم مصادر ومسارات الطاقة الحيوية فيه، بصورة تمكن المجتمع من تأدية دوره وألوان نشاطه بصورة تمكنه من تحقيق مقاصده المنشودة[3].

كانت المؤاخاة أول عمل قام به النبي محمد ﷺ بعد مجيئه إلى المدينة وبناء المسجد النبوي، وذلك ليكرس في النفوس أن العلاقة بين الإنسان والإنسان في

---

(١) ماجد موريس إبراهيم، سيكولوجيا القهر والإبداع (بيروت: دار الفارابي، ١٩٩٩م) ص٤٤.

(٢) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦م) ص ١٥.

(٣) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٩م) ص ٩٨.

المجتمع الجديد هي علاقة أخوة، فلا سادة وعبيد، ولا أشراف وسوقة، ولا أقوياء وضعفاء، ولا أغنياء وفقراء، ولا طبقية أو فئوية أو طائفية أو عصبية، بل الجميع إخوة الدين والعقيدة[1].

وهنا نؤكد بأنه لا يمكن فصل علاقة الإنسان بالله تعالى عن علاقاته مع (نفسه) ومع (الآخر)، فهذه العلاقات تشكل شبكة علاقات ثلاثية الأبعاد، تتكامل مع بعضها، فكلما التزم الإنسان بتعاليم الشرع الحنيف وطبقها قولاً وفعلاً، توثقت عرى العلاقة مع (النفس) ومع (الآخر)، والعكس صحيح، فالفقير في المجتمع المسلم، مثلاً، لا يرجو من الغني المساعدة ولا الرحمة، وإنما يلتمس منه العدل، وأن لا يظلمه فيمنعه حقه الذي فرضه الشرع: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۝ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج: ٢٤-٢٥).

وإذا كانت الشريعة تسعى إلى تنظيم العلاقة بين الإنسان وخالقه وتوثيقها عن طريق الالتزام بما أمر والابتعاد عما نهى، فإنها بذلك تعمل بصورة مباشرة على تنظيم علاقة الإنسان بنفسه وبالآخر وتمتينها من خلال المعاملات، علماً بأن ذلك لا يتأتى إلا بوساطة الالتزام بضوابط الشريعة وتعاليمها السمحة، ومن ثم حفظ حقوق الآخرين المادية والمعنوية ومراعاة مشاعرهم وأحاسيسهم، فالدين المعاملة، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده[2].

---

(١) حاكم المطيري، تحرير الإنسان وتجريد الطغيان، مرجع سابق، ص١٤٧.

(٢) www.al-hodaonline.com/np/31-5-2011/thnsh/8d0lyv91.htm

وعموماً، تعكس شبكة العلاقات الاجتماعية، بأبعادها الثلاثة مجتمعة، المفهوم الشامل للعبادة في الإسلام والماهية الأساسية للحياة الإنسانية في المجتمع المسلم، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)، والعبادة بمفهومها الشامل ما هي إلا مسار يسلكه الإنسان والمجتمع لتحقيق الهدف الأساسي للحياة وهو عبادة المولى عز وجل، مجسدة بمعاني عمارة الأرض والاستخلاف فيها، وبالتالي فإن قدرة أي مجتمع على النهوض والتقدم أو النكوص والتقهقر ترتبط بشكل أساسي بشكل وجوهر العلاقات الاجتماعية فيه.

- مرتكزات العلاقات الاجتماعية:

تُحدد العلاقات الاجتماعية خصائص المجتمع، وفيها يكمن سر قوة المجتمع أو ضعفه، ومن خلالها تتشكل شخصية المجتمع بأبعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، أما عن كيفية نشأة شبكة العلاقات الاجتماعية، فيقول العلامة مالك بن نبي، إن أي مجتمع يتكون من عوالم ثلاثة رئيسة هي[1]:

- الأفكار.
- الأشخاص.
- الأشياء.

---

(١) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص٣٤.

تشكل هذه العناصر الثلاثة الركائز الأساسية، التي تتمحور حولها العلاقات الاجتماعية، حيث تتفاعل هذه العناصر معاً ضمن بوتقة الزمان والمكان لتشكل، منفردة أو مجتمعة، جوهر العلاقات الاجتماعية في المجتمع، وكلما رجحت كفة عنصر من هذه العناصر مقارنة بالعناصر الأخرى في تشكيل شبكة العلاقات الاجتماعية في مجتمع ما، تقرر بذلك ما يلي[1]:

- العلاقات الاجتماعية في المجتمع وبمواصفات محددة.
- نمط أو أنماط التفكير العامة في المجتمع.
- منظومة القيم من حيث المحتوى والأولويات.
- محاور الولاءات والقوى المؤثرة فيها.
- الضوابط الأخلاقية والأليات، التي تقيم وتوجّه أنماط السلوك في المجتمع.

وفي ما يلي عرض لدور هذه العناصر أو المرتكزات في تشكيل شبكة العلاقات الاجتماعية، بكل ما يرتبط بها من قيم وضوابط واتجاهات وأنماط تفكير:

١- الأفكار:

ترتبط حياة المجتمع بكل خصائصه ووظائفه بمنظومة أفكاره وثقافته، التي هي رأسماله، فأي تغيير يطرأ على هذه الأفكار ينعكس بالضرورة على جميع

(١) ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ط٣ (عمان: دار الفرقان، ٢٠٠٣م) ص٣٣٨.

السمات الاجتماعية في هذا المجتمع وفق سيكولوجيا: «لكل مثير استجابة»، وهذه الحقيقة تؤكد أن الأفكار في أي مجتمع ما هي إلا وسيلة من وسائل تطوره، وعملية تطور المجتمع بمراحلها المختلفة هي بالضرورة انعكاس لعملية تطوره الفكرية، وأي تطور يصيب الأفكار، سلباً أو إيجاباً، في المجتمع يؤثر بصورة مباشرة في الأشخاص والأشياء فيه، فالمنظومة الفكرية إما أن تعمل على تقدم المجتمع ونهوضه، أو تؤدي إلى سكونه وأحياناً تقهقره، علماً بأن غنى المجتمع، أي مجتمع، لا يقاس بمقدار ما يملكه من أشياء، وإنما بمقدار مخزونه، وما يتولد فيه من أفكار[1].

عندما تتكاثف العلاقات الاجتماعية في المجتمع حول الأفكار، ولا تتعارض هذه الأفكار مع الطبيعة والفطرة الإنسانية، تكون «قادرة على ترجمة القيم واستحضار المرجعيات، وتجسيدها في واقع الناس، من خلال الإمكانات المتاحة، والظروف المحيطة، وامتلاك الخصوبة والقدرة على إبداع أوعية التعامل معها، وامتلاك القدرة على تجريدها من ظروف الزمان والمكان والأشخاص، والقدرة على توليدها في كل زمان ومكان وتجمع بشري، بحسب إمكاناته وظروفه»[2]، تكون شبكة العلاقات الاجتماعية فيه في

---

(١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص١١-١٢.

(٢) عمر عبيد حسنه، في: نعمان السامرائي، نحن والحضارة والشهود، سلسلة كتاب الأمة، ع:٨٠ (الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠١م) ص١٤.

أفضل حالتها، وكذلك الشخصية العامة للمجتمع، ويكاد الظلم ينعدم ويتلاشى في مثل هذه المجتمعات.

فمثلاً عملت فكرة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بكل مضامينها الفكرية، وقيمها ومبادئها، التي تمحورت حولها شبكة العلاقات الاجتماعية في المجتمع المسلم الأول، على بناء مجتمع إنساني عزّ نظيره في التاريخ على كل الصعد[1]، فقد عززت هذه الفكرة الدينية وما يدور في فلكها من قيم ومبادئ قوة «الأنا العليا» في شخصية هذا المجتمع، فترسخت سيطرة هذه الأنا على الشخصية الاجتماعية الكلية، وتراجع واختُزل دور وتأثير الأشخاص والأشياء في هذا المجال، وكان للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وفق تعاليم الدين السمحة، دور كبير في تشكيل البنيان المرصوص، الذي تجسّد في المجتمع بشبكة من العلاقات الاجتماعية الأفقية القوية والمتينة، التي يكون فيها الجميع متساوين كأسنان المشط، وتخلو من أي نوع من الفراغ الاجتماعي، الذي ينجم عادة عن ضعف أو غياب العلاقة الدينية، وقد تأسست العلاقات بين الأفراد والجماعات في هذا المجتمع على أساس العدل والمساواة في الحقوق والواجبات، وكان معيار المفاضلة بين الأشخاص هو التقوى فقط ولا شيء غير ذلك: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:١٣)، وفي

---

(١) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص٣٣.

الحـديث الشـريف: «**لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إلا بِالتَّقْوَى**»[1].

لـذلك تسـيّد الحيـاة الاجتماعيـة في المجتمـع الإسـلامي الأول وفي كـل جوانبهـا، منظومـات مـن القـيم والمثـل والمبـادئ الفكريـة والضـوابط العلميـة والأخلاقية، التي وجّهت سلوك الأفراد فيه، وارتبط الجانب الروحي مع الجانب الفكـري والاجتمـاعي، بـل أصـبح المكـون الروحـي يشـكل جـوهر الحيـاة الاجتماعيـة بشـكل عـام، وأصـبحت المبـادئ والأخـلاق هـي عنـوان المرحلـة، فسادت قـيم تبجيـل الـدين والعلـم، وانتشرت قـيم العدالـة، واحـترام (الـذات)، واحترام (الآخر)، والإيثار، والمساواة، وتكافؤ الفرص، والموضوعية، وتقـدير قـيم العمـل والإنتـاج والإنجـاز.. إلخ، وخضـعت مسـؤولية تـولي المناصـب بكـل مستوياتها لمعيار الكفاءة الدينية والعلمية، ودار صناع القرار والحكام في فلك العلماء وليس العكس، وقاد المجتمع في كل جوانـب حياته أكثر القـوم أهلية وقدرة وعلماً، وهكذا سما المجتمع، فتقدم وانطلق نحو آفاق الحضارة، ومع كل خطوة للأمام ازدادت قوته واشتد عوده، فانتصر المجتمع، وحقق مقاصده في نشر الدعوة إلى الله تعالى، وبسط نفوذه ما بين الأندلس غرباً والصين شرقاً.

ولن يصلح واقع الأمة الإسلامية المعاصر إلا بما صلح به مجتمع الإسلام الأول في عهـد الرسـول محمـد ﷺ والخلفـاء الراشـدين الأربعـة، وبالتـالي، فـإن

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

التنكر للفكرة الإسلامية وثقافتها وإقصائها وتهميشها، واستيراد الأفكار البديلة من ثقافات وحضارات أخرى، لن يجدي نفعاً في بناء المجتمع الإسلامي المعاصر المنشود «في ضوء الاستقراء الحضاري للمعادلات الاجتماعية ومشاريع النهوض التاريخية على مستوى (الذات) و(الآخر)»[1]، وهذا لا يعني أبداً الوقوف في وجه التبادل المعرفي والثقافي مع الحضارات والثقافات الأخرى[2].

٢- الأشخاص:

عندما تتمحور العلاقات الاجتماعية في المجتمع حول الأصنام أو الأوثان البشرية، وليس حول الأفكار، فإن الجانب الروحي ينفصل عن الحياة بكل مكوناتها، وتتبلّد مفاهيم المنطق والعدل والمساواة، يقول المولى عز وجل: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ (العنكبوت:٢٥).

فعندئذ يتعزز دور العصبية في الشخصية الاجتماعية الكلية للمجتمع، ويتراجع ويختزل دور «الأنا العليا» بكل ما تشتمل عليه من أفكار وقيم ومُثل وضوابط، وتتشكل في المجتمع في مثل هذه الحالة شبكة من العلاقات الاجتماعية المادية- المصلحية والمنفعية- التي تقوم على استبداد القوي، وخضوع الضعيف.

---

(١) عمر عبيد حسنه، في: نعمان السامرائي، نحن والحضارة والشهود، مرجع سابق، ص١٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٤.

في مثل هذه المجتمعات، سواء أكان ذلك في صورتها الإقطاعية التقليدية أم الشمولية المعاصرة، تسود مسلكيات تبخيس العلم واختزال دور الدين وفصله عن الحياة، ويدور العلماء في فلك الأمراء والحكام، ويصبح الناس على دين ملوكهم، فقد ورد في كتب التاريخ والسير: «إن الناس كانوا إذا أصبحوا في زمن الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا: من قُتل البارحة؟، ومن صُلب؟، ومن جُلد؟، ومن قُطّع؟..إلخ. وفي عهد الوليد بن هشام صاحب الضياع والمصانع، كان الناس يتساءلون في زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الأنهار وغرس الأشجار، ولما ولي سليمان بن عبد الملك، وكان صاحب طعام ونكاح، كان الناس يتحدثون ويتساءلون في الأطعمة الرفيعة، ويتغالون في المناكح والسراري....، ولما ولي عمر بن عبد العزيز، رضي الله تعالى عنه، كان الناس يتساءلون: كم تحفظ من القرآن؟، وكم وردك كل ليلة؟، وكم يحفظ فلان؟ وكم يختم؟، وكم يصوم من الشهر؟..»[1].

وبتكاثف العلاقات الاجتماعية حول الأفراد والشخوص، يتحول المجتمع إلى ميدان للنخاسة والظلم، يوسّد فيه الأمر لغير أهله، وتضّيع الأمانة، وتستشري الشللية وجماعات المصالح بأشكالها وصورها المختلفة، وينتشر الكذب والنفاق والتزلف والتدليس والواسطة والمحسوبية والفساد بكل صوره وأشكاله، وتسود ثقافة: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»[2]، حيث يكون الانتماء

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، مرجع سابق، ص ١٦١.

(٢) أخرجه البخاري.

لأصحاب القوة، أو الطائفة، أو العشيرة، أو الإقليم، أو جميعها، وينتشر الجدل دون العمل، ويظهر الفراغ الاجتماعي في شبكة العلاقات الاجتماعية في مثل هذه المجتمعات في صورة أزمات يومية متلاحقة ومتكررة، تواجه الأفراد، وتحبط كل عمل جمعي أو جماعي نظراً لغياب الضوابط وغياب منظومات القيم والأخلاق، ونتيجة لذلك يصاب المجتمع بحالة من الانفصام في الشخصية، نظراً للتناقض بين ما هو ممارس على أرض الواقع، وبين ما هو مطلوب للتغلب على هذه الأزمات.

في مثل هذه المجتمعات، التي تصبح كالغابة يأكل فيها القوي الضعيف، ينتشر الظلم، ويكثر الظلمة وأتباعهم من الأوغاد والسفلة، وتخبو كلمة الحق، ويقل أنصارها، وتضيّع الحقوق، ويعتلي الجهلة والرويبضة منصات المسؤولية العامة، وتصبح ثنائية القوة والضعف هي عنوان الحياة، لذلك سرعان ما يتراجع المجتمع تدريجياً حتى يصل إلى مرحلة الانهيار، ورحم الله من قال[1]:

حتى متى لا نرى عدلاً نسر به

ولا نرى لولاة الحق أعواناً

مستمسكين بحق قائمين به

إذا تلّون أهل الجور ألواناً

يا للرجال لداء لا دواء له

وقائد ذي عمى يقتاد عمياناً

---

(١) شهاب الدين الأبشيهي، مرجع سابق، ص ١٦٠.

لقد بدأ العدل يتراجع في المجتمع الإسلامي الأول مع انتهاء عهد الخلفاء الراشدين، وبداية العهد الأموي، حيث أخذ رجال الحكم وصنّاع القرار، في بعض المواقف، بإخضاع وتطويع بعض الفقهاء والعلماء لتوجيه ولاءاتهم لأشخاصهم بدلاً من الالتزام بتعاليم الدين[1]، لتبدأ مرحلة الجبرية في التاريخ الإسلامي والتي أخبر بها الصادق المصدوق، عليه السلام، ويسخر من ذلك بألم عبدالله بن هشام السلولي فيقول[2]:

فإن تأتوا برملة أو بهند	نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا ما مات كسرى قام كسرى	نعد ثلاثة متناسقينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم	تصيدون الأرانب غافلينا

حدث ذلك وتكرر حدوثه، رغم أن رسول الله ﷺ قد حذّر من الوقوع فيه، يروي عوف بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ: «**إني أخاف على أمتي من أعمال ثلاثة**، قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: **زَلَّةُ عَالِمٍ، وَحُكْمٌ جَائِرٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ**»[3]، ويقول، عليه أفضل الصلاة والسلام: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَكُونُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ هَذِهِ الأُمَّةِ، قَلَّتْ أَمْ كَثُرَتْ، فَلا يَعْدِلُ فِيهِمْ، إِلا كَبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ**»[4]، وقد قال الشاعر[5]:

---

(١) انظر: ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين...، مرجع سابق، ص ٣٤٠.
(٢) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، مرجع سابق، ص٣٨.
(٣) أخرجه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب، حديث رقم ١٣٣٤.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك.
(٥) انظر: محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، مرجع سابق، ص١٩٨.

ما كنت أوثر أن يمتد بي زمني

حتى أرى دولة الأوغاد والسفل

تقدمتني أناس كان شأوهم

وراء خطوي لو أمشي على مهل

لا شك أن نمط الحكم الاستبدادي قد فتح الباب على مصراعيه لكل صور الظلم وأشكاله، الأمر الذي أدى إلى انحراف واقع المجتمعات الإسلامية عن الأنموذج الإسلامي الأصلي والحقيقي، وأصبحت الخلافة الإسلامية في بعض الحقب التاريخية أداة للظلم والطغيان والفساد، بعد أن كانت وسيلة لرفع الظلم ومحاربة الفساد والاستبداد وإحقاق الحق وتحقيق العدل ونشره[١].

واستمر مسلسل الظلم والطغيان، وأخذ صوراً وأشكالاً أكثر قسوة، وخصوصاً ضد العلماء والفقهاء، فهناك قصة الحجاج مع سعيد بن جبير، والمنصور العباسي مع سفيان الثوري وابن المقفع، والمأمون مع أحمد ابن حنبل...إلخ[٢].

وهكذا ضاعت تقاليد النبوة في الحكم، واستبدلت بتقاليد الطغاة والجبابرة: فرعون وكسرى وهرقل، وأصبح المجتمع الإسلامي يعيش الحالة، التي وصفها الشاعر الجاهلي بقوله[٣]:

بغاة ظالمين وما ظُلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا

---

(١) alarabnews.com/alshaab/GIF/16-08-2002/Mahgoob.htm

(٢) انظر: ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين...، مرجع سابق، ص ٣٤٠.

(٣) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، مرجع سابق، ص٤٢.

لقد أفضى تعظيم الأفراد والشخوص وبالذات الحكام منهم، إلى استشراء الظلم والطغيان خلال فترات من الحكم الإسلامي، فعزلت الحياة عن الفكرة الجوهر: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وعن معظم ما يرتبط بها من تعاليم وقيم وضوابط وتوجيهات، فغاب دور الجماهير والعلماء والفقهاء، وانفرد بعض السلاطين بالحكم علانية وتعمداً، وأصبح مفهوم الحكم عند بعض حكام المسلمين مختزلاً في مقولة السلطان المعز لدين الله الفاطمي: «هذا حسبي» مشيراً إلى المال، «وهذا نسبي» مشيراً إلى سيفه، وهذا يعني أن السيف لمن يعارض أو يعترض، والمال للمقربين منه ولمن يؤيده[1].

لقد استلهم كثير من الطغاة لاحقاً من هذه المقولة، فكرة الحكم من خلال تحالف السلطة والمال، ليحكموا رعيتهم بالنار والحديد تارة، وشراء الذمم والضمائر تارة أخرى، وبما يخدم مصالحهم وتوجهاتهم بعيداً عن تعاليم الدين وضوابطه.

وتواصل الظلم والطغيان، وسقطت الخلافة العثمانية، وقسّم العالم الإسلامي إلى دويلات خضعت للسيطرة الاستعمارية، ونصبت حكومات من قبل المستعمر تسهر على مصالحه وترعاها، وبقي الطغيان جاثماً على صدور الجماهير بكل أساليبه القديمة والحديثة المطورة، مستلهماً استمراره وبقاءه من

(١) alarabnews.com/alshaab/GIF/16-08-2002/Mahgoob.htm

تعاليم كتاب: (الأمير) لـ«ميكافللي»، وعلى رأسها أن الحكم غاية يقتضي الوصول إليه والمحافظة عليه أن تستخدم كل الوسائل والأدوات الممكنة والمتاحة مهما كانت قذارتها.

استمر هذا النمط من المجتمعات، التي يعبد الناس فيها أسباب القوة، ومن يملكها، قائماً حتى وقتنا الحاضر، بعد أن فصل الدين عن الحياة، وبعد أن أصبحت العلاقات الاجتماعية في المجتمعات الإسلامية لا تقوم على الأخوة، وإنما على سيطرة قلة وخضوع واستعباد كثرة، واستمر الطغيان والظلم في مطاردته للمصلحين الداعين إلى تطبيق شرع الله تعالى في أرضه وعباده، فلم يعد هناك مكان للأطهار والشرفاء والمخلصين، ولا للعلماء والفقهاء، وكأن الزمن يعيد نفسه، فمأساة ما حدث مع نبي الله تعالى لوط، عليه السلام، يتكرر، وفي كل حلقات المسلسل التاريخي، فعندما كان هذا النبي الكريم يدعو قومه إلى العفاف والابتعاد عن الظلم وتحكيم شرع الله، كان يقال له من قومه[1]: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٨٢).

وهكذا حورب الأنبياء والمصلحون، وهكذا تم حصر الدين واختزاله في العبادات، التي أصبحت بمرور الزمن عادات والتي بدورها لا تصنع مجتمعاً مسلماً، وغيّبت معظم تعاليم الدين، التي تركز على المعاملات، وتدعو إلى العزة والكرامة والوقوف في وجه الظلم والطغيان والاستبداد.

---

(١) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، مرجع سابق، ص٨٥.

٣- الأشياء:

واستكمالاً لمرحلة مجتمعات الأفراد والشخوص، بدأ الناس يتعدون عن القضايا المهمة والمسائل الجادة والمحورية، ويتعلقون ويتمسكون بالأشياء، التي أصبحت محور ولائهم، فهم يعبدون الأموال، لذلك يتركز في هذه المرحلة اهتمام الناس على الشكليات والتفاهات والشهوات الظاهرة والخفية، وتنحصر هموم الناس ومشكلاتهم في مساحة صغيرة تنحصر ما بين المعدة والفرج، وتبرز ثقافة الترف، والاستهلاك، والأنانية، وحب الذات، ويتحاسد الناس ويتباغضون ويتظالمون ويتسابقون ويتصارعون في مجال امتلاك متاع الدنيا من النساء والبنين والأموال والخيل والأنعام والحرث: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ...﴾ (آل عمران: ١٤)، فينتشر الظلم والفساد بمختلف صورهما وأشكالهما.

وهذه مرحلة أخرى عاشها، وما زال يعيشها المجتمع المسلم، بعدما تراجع الوازع الديني في النفوس، وتعلق الناس بالدنيا، وتمزقت شبكة العلاقات الاجتماعية، وأصبحت الحياة في هذه المجتمعات ليست أكثر من سلسلة من الأزمات والعقد والفتن، التي يتلو بعضها بعضاً والتي تجهض كل جهد جاد ومخلص، فكان أن اجتمع على الأمة حالة ضعفها الداخلية هذه، إضافة لتكالب أعدائها من الخارج من خلال الغزو العسكري تارة، والغزو الفكري للعقول قبل الأوطان تارة أخرى، فتحققت عندئذ مقولة من لا ينطق عن الهوى، عليه أفضل الصلاة والسلام: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ**

كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[1].

إن المجتمع بعلاقاته الاجتماعية، سواء أكانت متمحورة حول الأفكار، أو الأشخاص، أو الأشياء، هو من يفرض لغته ومنطقه على الأفراد والجماعات فيه، من خلال العرف والتقاليد، والفرز الاجتماعي، أو الاقتصادي أو الفكري المسبق، فالفرد في محيطه الاجتماعي يواجه تحديات الأضداد، كالقوة والضعف، والغنى والفقر، والجهل والمعرفة، إلى جانب تحدي التمييز العنصري بسبب اللون أو الجنس أو الدين، وتتباين استجابة البشر لهذه التحديات، وتختلف باختلاف البشر أنفسهم[2]، وتحدي الأضداد واستجابات الأفراد هي الأرضية الخصبة، التي قد ينمو فيها الظلم ويترعرع، في حال غياب الوازع الديني وتقوى الله تعالى.

إن تمركز علاقات الأفراد وتمحورها في المجتمعات الإسلامية المعاصرة حول الأشخاص والأشياء، والابتعاد عن فكرة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، قد حولها إلى مجتمعات ظلم وحقد وكراهية، واقع الحياة فيها بائس ومهين للكرامة

---

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) ماجد موريس إبراهيم، سيكولوجيا القهر والإبداع، مرجع سابق، ص١٧.

الإنسانية، ففي هذه المجتمعات يتوقع الفرد أن تعتدي عليه السلطة في كل لحظة، ودون أي سبب، ويعتبر مجرماً مَن ينتقد الظلمة والظالمين، ويُضطهد من يقول كلمة الحق، ويُنصر من يقول الباطل، وتزيّف المبادئ وتزوّر الحقائق، ويجرّم المواطن دون محاكمة، وإذا حوكم ظُلم، ويتاح فيها للجبان ما لا يتاح للشجاع، ويملك الجاهل ما لا يملك العالم، ويبارك فيها الاستغلال، ويغيب العدل بين الناس، ويصبح الفساد هو أساس كل علاقة أو معاملة[1].

- الظلم والبنية الاجتماعية الممزقة:

يتسم التركيب الاجتماعي في مجتمعات الظلم بالتسلط والاستبداد في كل مستويات الهرم الاجتماعي، والتسلط والاستبداد هما نتاج هيمنة السلطة الأبوية، ليس على مستوى الأسرة فحسب، بل أيضاً على مستوى المؤسسات التربوية والمجتمعية جميعها، فالمجتمع الأبوي ما هو إلا مجتمع ذو علاقات رأسية تراتبية بحكم بنائه الاجتماعي الهرمي، فالأب يسيطر على أفراد الأسرة، وإرادته في الأسرة مطلقة ومبنية على الطاعة والقمع، وما ينطبق على الأب مع أفراد أسرته، ينطبق على المعلم مع طلبته، ورب العمل مع موظفيه، والحاكم مع المحكومين، وهكذا تتمكن من نفوس الكثرة المستضعفين النزعة «المازوشية»، بينما تتحكم في نفوس القلة الظالمة النزعة «السادية»، وتجتمع النزعتان في شخصية الفرد في مجتمعات الظلم، نظراً لازدواجية الدور لكل فرد من أفراد

(١) سعد جمعة، مجتمع الكراهية، بدون مكان أو جهة أو تاريخ للنشر، ص١٥-١٦.

هذه المجتمعات، حيث يؤدي الفرد الواحد دور السيد على من دونه وفي نفس الوقت التابع لمن فوقه.

والنزعة «المازوشية» هي حالة من التخلي عن استقلالية (الذات) لصالح (الآخر) القوي، للحصول على الدعم والقوة، التي تفتقد إليها (الذات)، وهذه الحالة تتسم بالرغبة في الخضوع والهيمنة، وهذه الرغبات، توجد عند أفراد المجتمع بدرجات متفاوتة، ويغلب عليها مشاعر العجز والدونية الناجمة عن تبخيس النفس، والتقليل من أهميتها، وتعويض ذلك بالخضوع للآخر القوي؛ وأيضاً تتسم هذه الحالة في نفس الوقت برغبات مناقضة تماماً للرغبات «المازوشية»، ألا وهي الميول السادية، التي تأخذ صورة الاعتماد المطلق على (الآخر) أحياناً، وصورة استغلاله واستنزافه وسرقته في أحيان أخرى، وصورة تعذيب الآخر والتسبب في معاناة ذهنية له[1]. والشخصية التسلطية بميولها «المازوشية» والسادية المتناقضة، مؤهلة لتأدية دور مزدوج في المجتمع، هو دور السيد والتابع، أو الظالم والمظلوم في نفس الوقت.

لذلك، فإن التنظيم الاجتماعي على مستوى المؤسسات المختلفة، وعلى مستوى المجتمع في مجتمعات الظلم مشوّه بل وممزق أحياناً؛ لأن أنماط التفكير والعمل السائدة فيه مشوّشة، وهذا في واقع الأمر نتاج عقود من الاستغلال والاستبداد، التي هُمّش وجُمّد فيها جوهر الدين، وعُزل عن الحياة، خدمة لمصالح

---

(١) أحمد عطية، الخوف من الحرية، في: ثقافة الخوف، مؤتمر جامعة فيلادلفيا الدولي الحادي عشر، عمان، ٢٠٠٦م، ص٦٦.

الفئات المتنفذة الظالمة، لذلك فليس غريباً أن نجد أنّ المعرفة في كثير من المجتمعات الإسلامية المعاصرة تتسم أحياناً بفهم سطحي وساذج للدين، وفي أحيان أخرى تقوم هذه المعرفة على جهل أو فهم خاطئ لكثير من تعاليم الدين السمحة في مجالات التربية والاجتماع والسياسة والإدارة وجوانب الحياة المختلفة الأخرى، هذا إلى جانب تعطيل دور العلم والعقل وعزلهما عن الحياة عبر عقود من الذل والهوان والاستعباد، خدمة لمصالح الظلمة المتنفذين في الداخل، وخدمة للطامعين من أعداء الأمة والمتربصين بها من الخارج.

فالعلم والعقل في الإسلام لا تقل أهميتها عن دور التعاليم الدينية نفسها، فهما من القواعد الأساسية، التي بُني عليها الشرع الحنيف، وأمر بتوظيفها لخدمة مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع وفق القواعد والأصول الشرعية.

الإنسان في مجتمعات الظلم غريب عن نفسه وعن الآخرين، ففرص المشاركة محدودة، والقدرة على التغيير معطلة، ولا مخارج إلا بالخضوع والاستسلام القسريين، أو الهرب من هذا الواقع المر، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى إصابة المجتمع بما يعرف بأزمة المجتمع المدني، ممثلة بفقدان المجتمع لقدرته في السيطرة على مصيره وعلى موارده.. واستشراء الظلم وبقية الأمراض الاجتماعية فيه، يعمل على تداعيه وانهياره من الداخل، وأخيراً هيمنة السلطة عليه بدلاً من أن يحدث العكس[1]، فتتجذر علاقة القوي والضعيف، فيزداد الظلم ويستفحل ويتسارع التقهقر والانحدار الحضاري.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٦.

وفي مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة، ونظراً لتعطيل الدين، وعزل العقل، وتبخيس العلم، فإن الأنظمة والمؤسسات لا تكتفي بعدم إشراك العامة في مختلف النشاطات الإنسانية، وبالذات في عملية صنع القرار، بل تجهض دورهم في تحسين مستويات معيشتهم، وتغتصب حقوقهم المدنية، وتحولهم إلى عجزة ومغلوبين على أمرهم، منشغلين عن قضاياهم الاجتماعية الكبرى بأمور المعيشة والسعي المتواصل لتأمين حاجاتهم اليومية، لذلك تعيش العامة في مثل هذه المجتمعات على هامش الحياة، بعيداً عن صميم الأحداث، تتملكها حالات من الحذر والقلق والخوف من الفشل والتعرض للمخاطر، حالة من الخوف المزمن من الماضي والحاضر والمستقبل، إن هامشية الوجود للعامة يرافقها سطحية في التفكير والاهتمامات، فيشغل اللهو والترف والشهوات والأشياء وجودها، فهي تعمل لكن ليس لنفسها، تفكر ولكن ليس في قضاياها الكبرى، تشعر لكن ليس بوجودها، ولا شك أنّ العامة في مجتمعات الظلم والكراهية هذه، تنفعل مع الواقع، لكنها لا تستطيع صنعه أو تغييره، فهي لا تصنع الظروف، وإنما تشاهد حدوثها وتتابعها[1].

أما القلة المسيطرة فهي نخب لا تعمل للمجتمع، ولا من أجله، متحالفة مع الخارج القوي خدمة لمصالحها، وبالتالي فهي فئات مستلبة ثقافياً تعمل بقيم وافدة وغريبة عن الثقافة العربية الإسلامية، وتحاول فرض هذه القيم الغربية

(١) المرجع السابق، ص٣٥.

على العامة، فيتولد الصراع بين ما هو أصيل ومرغوب، وما هو غريب ومرفوض، الأمر الذي يعمل على تشتيت جهود الأفراد والمجموع في هذه المجتمعات، ويعطل نموها وتقدمها، ويفضي في النهاية إلى تفكيكها[1].

لا شك أن الظلم ما هو إلا علاقة بين طرفين، أحدهما يملك أسباب القوة، والآخر لا يملكها، ونظراً لعدم التوازن والتساوي بين طرفي العلاقة، وفي ظل غياب الوازع الديني والضوابط الأخلاقية عند الطرف الذي يملك أسباب القوة، فإن هذه العلاقة تدخل ضمن العلاقات القهرية، أي التي يُمارس فيها القهر والغصب، سواء أكان ذلك باستخدام القوة بصورة مباشرة (القوة الخشنة)، أو التلويح بها وتهديد الطرف الآخر باستخدامها أي الدبلوماسية أو (القوة الناعمة).

---

(١) نعمان السامرائي، نحن والحضارة والشهود، مرجع سابق، ص٨٣-٨٤.

الفصل الخامس

سسيولوجيا الظلم

- مقدمة:

تتسم أغلب المجتمعات التقليدية ببنية هرمية تراتبية، يحتل فيها الحاكم رأس الهرم الاجتماعي، بينما يحتل عامة الناس ودهماؤها قاعدته، وما بين رأس الهرم وقاعدته توجد فئات وشرائح سكانية مختلفة، تتباين حقوقها وعلاقاتها وفق موقع كل منها في الهرم الاجتماعي، ورغم كل محاولات تزيين ظاهر العلاقات الاجتماعية وتجميلها «بميكب» الحداثة والمدنية في هذه المجتمعات، إلا أن باطنها التسلطي يطغى على حقيقتها.

لذلك نجد هذه العلاقات لا تخرج عن كونها علاقات تبعية وهيمنة، يقودها القمع والظلم والاستبداد في الباطن، وتسيرها المنفعة والمصلحة في الظاهر، ومن خلال الصورتين الباطنية والظاهرية، تبرز علاقة القوي والضعيف، أو السيد والتابع، أو «الظلوم» و«الجهول»، كما سميناها في هذه الدراسة، يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢).

- علاقات التبعية والظلم:

تتشكل علاقة الظلوم والجهول، أو السيد والتابع نتيجة سعي الأفراد والجماعات داخل المجتمع لتحقيق مصالحهم وإشباع حاجاتهم، من خلال الوصول إلى أسباب القوة المختلفة، وهذا النمط من العلاقات يأخذ شكلاً هرمياً في إطاره العام، ونمطياً شبكياً في تفاصيله، فنجد أن لكل علاقة طرفين، هما:

- طرف قوي:

وهـذا الطرف يملك أحـد أسباب القـوة أو أكثر، ويعرف بالظلوم أو بالسيد، والظلوم هو سيد على من دونه رتبة في الهرم الاجتماعي، ولكنه في الوقت نفسه عبد وتابع لمن هو أعلى منه رتبة، وهذا الدور المزدوج يخلق عند الأسياد أو الظلمة حالة من الانفصام واللاتوازن، لذلك نجد الظلوم أو السيد في هذه المجتمعات يعرف الحق ويحيد عنه خدمة لمصالحه واتّباعاً لهواه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل:١٤)، والظلمة يحبون العلو في الأرض، وهذا مرتبط بالفساد وهو أصل الظلم، ورحم الله الزهاوي حين قال:

وما هذه في الدهر أول مرة

رأى الحق فيها الظالمون فأنكروا

يعيش الظلوم حالة من تضخيم الذات أو الشعور «بالسوبرية»، فهو يرى نفسه مركز الكون، لا يخطئ، وإن حصل فالأتباع هم السبب، لا يرى

إلا نفسه في مرآة الحياة، ولا يفكر إلا في ذاته، يعاني الاضطراب ويتملكه إحساس دائم بالخوف، والريبة من الناس، ومن الظروف: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ (النور: ٥٠).

تجسّد شخصية الظلوم أو السيد، أيًا كانت رتبته، أو موقعه على سلم الهرم الاجتماعي شخصية فرعون، الذي يصول ويجول، يتجبر ويستكبر، ويتكبّر، ويرى نفسه فوق العباد بحكم امتلاكه لبعض أسباب القوة المادية: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (القصص: ٤).

يتمتع الظلوم غالباً بشخصية نرجسية عدوانية، تبحث دائماً عن أسباب القوة، التي تمكنّها من السيطرة على الناس والتحكم بهم، وهذه الشخصية تتسم بالأنانية، وهي شخصية غير أمينة، وليست أهلاً للثقة ولا عهد لها، وتطبق في كل مسلكياتها مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وبالتالي فهي جاهزة دائماً لممارسة أي فعل غير أخلاقي، وغير إنساني في سبيل تحقيق مصالحها، التي تحتل سلم أولوياتها، فهي شخصية لا تهمها مصالح الآخرين ولا المصلحة العامة، وتمقت كل أشكال وصور الفضيلة والقيم والأخلاق، الرغبة والشهوة في مثل هذه الشخصية فوق الخوف، وهي باختصار شخصية بهيمية[1].

يستحسن الظلوم العدل من غيره، ويتحسس من الظلم، وبالتالي فهو يحب لنفسه ما لا يحب لغيره، يؤرقه نجاح الآخرين وصعودهم سلم الهرم

---

(١) عادل صادق، كيف تصبح عظيماً (الأسكندرية: مؤسسة حورس الدولية ، ٢٠٠١م).

الاجتماعي، لا يعرف المنافسة الشريفة، ويلجأ إلى كل الوسائل اللاأخلاقية في التعاطي مع أتباعه وخصومه ومنافسيه، لا يعنيه من أتباعه سوى الولاء المطلق لشخصه وأفكاره، لا يؤمن بالولاء للأوطان، أو للقيم والمبادئ السامية، يصنف أتباعه حسب درجات خضوعهم له، ويعتبر أتباعه جزءاً من أملاكه، يتصرف بهم كيفما شاء ومتى شاء.. ويحقق الظلوم ولاء أتباعه له من خلال إفسادهم بمنحهم الأموال، أو الوظائف والامتيازات، التي لا يستحقونها[1].

يستخدم الظلوم لغة الكذب والتضليل والخداع في مخاطبة أتباعه[2]، ويميل دائماً إلى توسيع دائرة المنافقين والمصفقين حوله، ولكي يحمي نفسه يستخدم دائماً أسافل الناس ممن تعجبهم وتجذبهم مظاهر العلو والمفاخرة[3].

يتعاطى الظلوم مع أتباعه بنظرة دونية بائسة، يحرص على تفرقهم أكثر من وحدتهم، ويغرس الفرقة والخلاف بينهم ليشتّت قواهم، ويسوسهم كما يريد: ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ (القصص:٤).

يمارس الظلوم مع أتباعه كل أشكال الاستضعاف والاستعباد، وهم بحكم ضعفهم يستمرئون ذلك من أجل العيش بسلام، لذلك يطيعون جميع أوامره

---

(١) سامح فوزي، السيد والتابع في المؤسسات الحديثة:
www.onislam.net/arabic/.../94426-2006-06-30%2012-48-30.html

(٢) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، (بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٧٦م) ص٥٨.

(٣) عبد الرحمن الكواكبي، الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ص٨٥.

وينفـــذونها: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ (الزخرف:٥٤).

يفرض الظلوم على أتباعه أن ينظروا للأشياء والكائنات في الكون بمنظاره فقـــط: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (غافر:٢٩)، لذلك فهو يقود نفسه وأتباعه بغروره وظلمه وجهله إلى الفساد والضلال: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ (طه:٧٩)، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (طه:١١١)، ومن ثم يفضي بهم ظلمهم إلى سخط الله تعالى وعذابـــه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الزخرف:٥٥)، ليجعلهم الله تعالى عبرة ومثلاً لكل ظالم وطاغية على مر الزمان: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ (الزخرف:٥٦).

ويحسب الظلوم رغم ظلمه، أنه يحسن صنعاً للناس، مع أن سعيه قد ضل في الحياة الدنيا والآخرة، ورحم الله تعالى من قال:

قال الظالمون وقد تمادوا   بظلم الناس غايتنا السلام

هؤلاء هم الظلمة، عبيد الدنيا وطلابها، بظلمهم وفسادهم وفجورهم الدنيوي، سيحرمون من نعيم الآخرة كما قال عزّ من قائل: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص:٨٣).

- طرف ضعيف:

وهـذا الطرف لا يملك أي شكل من أشكال القوة، ويعرف بالمجهول أو التابع، ويعيش باستمرار حالة من الخضوع والإذعان واستمراء الظلم، وهذه حالة «سيكولوجية» تتشكل في الشخصية الإنسانية بفعل التربية والثقافة، التي تم معايشتها في الأسرة والمدرسة والمجتمع، وهذه الشخصية ذات نزعة «مازوشية» تعيش حالة من المعاناة الدائمة، لأنها تتلذذ بالضعف، وتعجب بقوة الآخرين، وترغب بسيطرتهم، تحب الاستعباد والقهر، فهي تعيش الظاهرة الاستسلامية بكل أبعادها[١]، وهذا الوضع هو نتاج الجهل وغياب العلم والوعي، فالدين يرفض الخضوع والإذعان لشيء فوق العقل[٢].

قد تكون هذه الحالة من منظور «سيكولوجي» سمة ظاهرة وملموسة في الشخصية، وقد تكون كامنة، ولكنها قابلة للظهور في أي موقف.. وعموماً يغلب على شخصية المجهول الانهزامية والاعتمادية، وهذه السمات هي تكريس لكل معاني الرضوخ والذل والاستسلام.

تدفع حال الجهلة والمستضعفين هذه للقول: «إنه لأمر جلل حقاً، وإن انتشر انتشاراً ادعى إلى الألم منه إلى العجب، أن نرى الملايين من البشر يخدمون في بؤس، وقد غلت أعناقهم دون أن ترغمهم على ذلك قوة كبرى، بل هم فيما يبدو قد سحرهم وأخذ بألبابهم مجرد الاسم، الذي ينفرد به

(١) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مرجع سابق، ص٦٧.
(٢) الكواكبي، الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ص٨٤.

البعض، كان أولى بهم ألا يخشوا جبروته، فليس معه غيره، ولا أن يعشقوا صفاته، فما يرون منه إلا خلوّه من الإنسانية ووحشيته، إن ضعفنا نحن البشر كثيراً ما يفرض علينا طاعة القوة، ونحن محتاجون إلى وضع الرجاء في الإرجاء ما دمنا لا نملك دائماً أن نكون الأقوى»[1].

تتسم شخصية المجهول، أو التابع، بعقدتي النقص والعار، أما عقدة النقص فهي حالة تسيطر فيها على الشخصية الإنسانية صفات: العجز، والاتكالية، والإحساس بالدونية، والاعتباط، وإحساس دائم بالخوف والتهديد من كل شيء، والاستسلام والهروب وعدم القدرة على المجابهة، وانعدام الثقة بالنفس، والاغتراب ورفض كل جديد والتمسك بالقديم.

أما عقدة العار فهي حالة تميز الشخصية التابعة، وتضفي عليها صفات: الخجل من الذات، الإحساس بالعار عند كل فشل، والحرص على عدم افتضاح عجزه واتكاليته، والانبهار بالمظاهر والتستر خلفها، والإحساس بالكرامة المهددة، وعدم الاتزان[2].

تستشري ثقافة الجهل والاستسلام هذه، التي تقوم على أرضية «نفّذ ثم ناقش» من خلال «الانغلاق الأسري، والبيروقراطية المدرسية، والتعليم التلقيني، والعوز المادي، ومتطلبات المجتمع الاستهلاكي، والطموح الشخصي الجامح، والرغبة في الصعود السريع على السلم الاجتماعي، ومشاهد البؤس،

---

(١) اتين دي لابويسيه، العبودية المختارة، ترجمة مصطفى صفوان (بيروت: دار الآفاق والأنفس، بدون تاريخ) ص٨٢-٨٣.

(٢) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٥٩-٦٤.

وقصص الحالمين المحبطين، وعسكر الأمن المركزي، والسلطة التي لا تحترم القانون... إلخ»[١].

تزين ثقافة الجهل للإنسان شيم الخضوع والخنوع بوصفهما الطريق الوحيد للبقاء والعيش بسلام في المجتمع، ولكي يتحقق له ذلك، فلا بد له من سيد يحميه، ويدافع عنه، ويفتح له سبل العيش في مقابل الخضوع له ولأوامره، وتنفيذها دون اعتراض أو نقاش، وهكذا تولد وتتشكل مجتمعات الظلم والعبودية[٢].

تكون الشهوات هي شغل الجهول الشاغل، ويكون التلون، والتزلف، والنفاق من أهم شيمه، فهو يسبّح بحمد أي ظلوم أو سيد احتل موقع المسؤولية، بغض النظر من هو، ويعرض عليه خدماته مباشرة بعد توليه منصبه، فإذا وافقه على نفاقه حمل له المباخر، وإلا تحول إلى معارض له يشهّر به، ويغتال شخصه بالنميمة، والكذب والافتراء[٣].

يحسد الجهولُ الظلومَ على ما يقدمه له من فتات النعم، وقد صور ذلك الشاعر المتنبي أروع تصوير بقوله:

وأظلمُ أهل الأرض من بات حاسدًا

لمن بات في نعمائه يتقلبُ

تقوم بين الظلوم والجهول، أو السيد والتابع علاقة مادية منفعية غير متكافئة ولا متوازنة، بحيث يقدم الظلوم للجهول فرص الحصول على وظيفة،

---

(١) سامح فوزي، السيد والعبد في المؤسسات الحديثة، مرجع سابق

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

أو مساعدة ماليـة، أو منحـة، أو بعثـة دراسـية، أو تمكينـه للوصـول إلى أي مصدر من مصادر القوة، ليلبي حاجه أو يشبع رغبة، في الوقت الذي يقدم فيه التابع للسيد الولاء والمساندة في كل المناسبات وعند الحاجة.

تعتبر هـذه العلاقـة مـن منظـور «سيكولوجي» علاقـة «سادومازوشية»، يلعـب الطرف القـوي فيهـا دور السـادي أو العـدواني، نظـراً لظلمـه واستبداده وقسوته، بينما الطرف الآخر «مازوشي» ضعيف، و«المازوشية» هنا من النوع المعنوي الذي يجعل صاحبه يعيش حالة دائمة من المعاناة المادية والمعنوية[1]، وتجدر الإشارة إلى أن أكثر الفئات، التي يقع عليها الظلم في المجتمعات، التي يسيطر فيهـا هـذا النمط مـن العلاقـات هـم: المستضعفون والفقـراء والنسـاء والأطفـال، يقـول تعـالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥).

تـؤدي علاقـة الظلـوم والجهـول عنـدما تسـود في مجتمـع مـا إلى تفككـه، بفعـل عمـليات التهميـش والإذلال والإقصـاء، الـتي تتولّـد جـراء هـذا النمط مـن العلاقـات الاجتماعيـة، وهـذه الحزمـة مـن صـور الظلـم تـؤدي إلى زعزعـة وتفتيـت العلاقـات المجتمعيـة في جوانـب الحيـاة المختلفـة، مـن اجتمـاع واقتصـاد وسياسة وثقافة.

---

(١) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مرجع سابق، ص١٣٢.

ينجم عن توطّن علاقة الظلوم والجهول في مجتمع ما ردات فعل مختلفة، بعضها يتمثل في إنتاج حالات وأشكال مختلفة من التطرف والعنف المجتمعي، الذي يفضي إلى مزيد من الظلم والتفكك، والبعض الآخر من ردات الفعل هذه يعيد إنتاج آليات بؤس تعمل على تغييب التوزيع العادل للثروة العامة، بحيث تصبح قطاعات عريضة من الجماهير المستضعفة أسرى لحاجاتها المادية، وتضعف هذه الآليات من المشاركة الشعبية الحقيقية في عملية صنع القرار، وبالتالي تنعدم ثقافة الحوار، وتختفي قيم الندية، والمساواة، والكرامة، والعمل الشريف، والاحترام، والتضامن، والتسامح بين الناس..الخ، وتحل محلها قيم التعصب، والتشدد، ورفض التغيير، والانعزالية، والتطرف، واستخدام العنف كآلية لحل الخلافات والنزاعات...الخ، فيستشري الظلم في المجتمع[1].

- الإسلام في مواجهة علاقات التبعية والظلم:

رفض القرآن الكريم في آيات كثيرة كل علاقات التبعية والظلم والخضوع بين الأفراد، أيًا كان شكلها أو صورها، وذلك لأنها تعمل على إنتاج الظلم وتكريس ثقافة الخضوع والطغيان، وتشكيل مجتمعات الكراهية، التي تتسم باستشراء الظلم والفساد، الذي أشار إليه الكتاب العزيز، وسجله في حوار بليغ ورائع بين المستكبرين وهم الظّلام من جهة والمستضعفين وهم الجهّال من جهة أخرى، وذلك من أجل إقناع المسلمين بعدم اتّباع الطغاة والاستسلام

---

(١) طيب تزيني، الوسطية: المفاهيم والأفكار، في: الوسطية بين التنظير والتطبيق (عمان: منتدى الفكر العربي، ٢٠٠٦م) ص٣٢-٣٣.

لهم، لخلق وتعزيز روح الرفض والصد في المجتمع لكل طاغية، لأنه في النهاية بشر لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فكيف لمن يتبعونه؟

لا شك أن غرس معاني العزة والكرامة في نفوس المسلمين يقود إلى رفض الخضوع والطاعة العمياء لكل متكبر، ويعمل على تعطيل كل آليات ووسائل إنتاج الظلم والطغيان ويجفف منابعها، لقد عرض الكتاب العزيز لعلاقة التبعية بين السادة والأتباع، ونقلها في صورة حوارات تجري بينهم يوم القيامة، وتظهر هذه الحوارات كيف يتبرأ كل طرف من الآخر، يقول تعالى: ﴿... وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (سبأ:٣١-٣٣).

ويقول عز من قائل: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (الأحزاب:٦٧-٦٨).

ويقول أيضاً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ

ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة:١٦٥-١٦٧).

ويقول كذلك: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ (ص:٥٥-٦٤).

- مجتمعات الظلم:

تتميز مجتمعات الظلم بشيوع علاقة التبعية فيها، مثل: الظلوم والجهول، أو السيد والتابع بين الأفراد، وهذا النمط من العلاقات هو علاقات أبوية تتسم بالتبعية والتسلط، وتأخذ صوراً وأشكالاً مختلفة ضمن شبكة العلاقات الاجتماعية على مستوى المجتمع الواحد، حيث تبدأ الأبوية على مستوى الأسرة، وترسخ هذه الأبوية السلطة الرسمية، أو الحكومات على مستوى المجتمع، وذلك من أجل المحافظة على امتيازات السادة أو «الباترونات»[١].

(١) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مرجع سابق، ص٣٧.

وهكذا تتشكل مجتمعات الظلم والكراهية، التي تتسم بما يلي:

١- يعمل تجذّر علاقة الظلوم والجهول في النسيج الاجتماعي لمجتمعات الظلم على تشكيل نمط من العلاقات الاجتماعية الرأسية التسلطية في المجتمع، ووفق هذه العلاقات يخضع الضعيف للقوي، والفقير للغني، والموظف للمدير، والطالب للمعلم، والزوجة للزوج، والابن للأب، ومن لا يملك لمن يملك...الخ، وبالتالي فإن الفرد في مثل هذه المجتمعات لا يملك خيارات أو بدائل، فهو إما أن يكون ظالماً أو مظلوماً، قاهراً أو مقهوراً، سيداً أو عبداً، تابعاً أو متبوعاً، قامعاً أو مقموعاً..الخ.

٢- تقوم علاقة الظلوم والجهول في مجتمعات الظلم بإخضاع عقلية الفرد لقيمها، وتضلله إلى أعمق المستويات، بحيث يصبح همّ الفرد في حياته الاجتماعية يتمثل في تأمين مصالحه الخاصة، والمحافظة على سلامته، وهذا يدفعه إلى توخي الحذر دائماً، والابتعاد عن أي شكل من أشكال المغامرة أو المخاطرة، إضافة إلى مواجهة الحياة بأسلوب دفاعي، وكظم وكبت كل أشكال معاناتها، وهذا الوضع يؤدي إلى خلق حالة «سيكولوجية» عند الفرد والمجموع، يتجذر فيها الخضوع بدلاً من العزة والكرامة، والخداع والمكر بدلاً من الشجاعة والمواجهة، والنكوص والتقهقر بدلاً من المبادرة.

٣- لا يستطيع الناس في مجتمعات الظلم والكراهية مواجهة القوي أو المسيطر أو من هو أعلى منهم رتبة في الهرم الاجتماعي بصورة مباشرة، وإنما يلجأون إلى الحيل والخداع والتلون والنفاق لدرء خطره، إنهم يواجهون مباشرة

فقط من هم أضعف منهم، أو أدنى منهم رتبة في الهرم الاجتماعي وبذلك تتكرس وتسود علاقة الظلوم والجهول أو السيد والتابع في المجتمع، بحيث يُخضع الأول الثاني في الهرم الاجتماعي، وفي تراتبية محكمة من أعلى إلى أسفل[1].

٤- يؤدي تكريس علاقات التبعية في المجتمع، إلى جعل الظلم والقهر سمة مميزة للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في المجتمع نفسه، ولا شك أن شخصية الإنسان، في أغلب المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة، تتشكل وفق هذه الثنائية البائسة، حيث يتدحرج الأفراد إلى حيث سلطة الأب، أو الطبيعة، أو السيد، أو الإقطاعي، أو صاحب العمل، أو المعلم، أو الحاكم... الخ[2].

٥- لا توجد وجهات نظر في مجتمعات الظلم والكراهية، وإنما هناك وجهة نظر الظلوم أو السيد، وهي الصحيحة دائماً، ولا يجوز أن يمتنع أي تابع عن خدمة سيده، ولا يجوز أن يرفض أي تابع أن يكون فاسداً، ويجب على التابع أن يسخّر كل مهاراته لخدمة سيده والترويج له، والإشادة به في كل محفل، وهذا مخالف لشرع الله تعالى، فالإنسان السوي، كما قيل، إذا لم يستطع قول الحق أو نصرته، فإنه لا يصفق للباطل، يقول يوسف ابن أسباط: «من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه»[3].

---

(١) هشام شرابي، مقدمات لدراسة المجتمع العربي (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م) ص٥٧.

(٢) أسعد وطفة، بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩م) ص٢١-٢٤.

(٣) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، مرجع سابق، ص ١٦٥.

٦- العنف والتطرف في مجتمعات الظلم هما نتاج عنف الواقع وتطرفه، فهما ليسا من العقل أو من النص، كما يدعي كثير من الباحثين وبالذات الغربيين، فالطبيعة الإنسانية بما تشتمل عليه من ضعف وأهواء وشهوات ورغبات وصراع المصالح بين البشر هما السبب في ذلك، فالقوي يبدأ بالعنف، والضعيف يقابله بالعنف أيضاً، نظراً لغياب الحوار بينهما، فعنف القوي فعل، وعنف الضعيف رد فعل على ذلك، فإذا ما انتهى الفعل انعدم رد الفعل، وبالتالي فإن تغيير الواقع المتطرف هو السبيل الوحيد للتغلب على ظاهرتي العنف والتطرف، وهذا لا يتأتى إلا من خلال رد الحقوق لأصحابها، فالغني لا بد أن يقترب من الفقير بإعطائه حقه الشرعي والأخذ بيده لإنقاذه من ذل الحاجة والمسألة، والظالم لا بد أن يعيد للمظلوم حقوقه، التي سلبها منه، والقاهر يجب أن يتوقف عن استضعاف الناس واستعبادهم وأن يرد عليهم حقوقهم، وهذا في الواقع الإسلامي المعاصر لا يمكن أن يحدث إلا من خلال تفعيل مبدأ الحسبة، الذي يتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل جوانب الحياة، بحيث يصبح هذا المبدأ جزءًا لا يتجزأ من ضمير وسلوك الفرد والمجموع، فبهذا المبدأ تفوق وسما المجتمع الإسلامي الأول، وقدم خير أمة أخرجت للناس؛ وباستعادة هذا «الإنزيم» ليتدفق من جديد في شرايين المجتمعات الإسلامية المعاصرة، تستعيد الأمة عافيتها ودورها التاريخي والإنساني والحضاري[1].

---

(١) حسن حنفي، مفهوم الوسطية في الإسلام، في: الوسطية بين التنظير والتطبيق (عمان: منتدى الفكر العربي، ٢٠٠٦م) ص٦١-٦٢.

٧- تتسم اللغة الدارجة والمتداولة في مجتمعات الظلم بنكهة خاصة ومميزة، تعكس واقع هذه المجتمعات، بما تشتمل عليه هذه اللغة من الألفاظ والأسماء والمصطلحات، التي تدور في فلك مفاهيم القوة والضعف، وما يرتبط بهما من قيم واتجاهات كما هو الحال في: الفهلوي، والمفتري، والنذل، وقليل الدين، وعديم الضمير، والملعون، المهووس، والأراجوز، والمتعوس، ومسّاح الأعتاب، والكذاب، والهكاص، والأوباش، والهبّاش، والهلاّس، والرمّة، والتوهان، والخواجة، والدرويش، والخيخة، والدلدول، والطرطور، والمهزوز، والمدسوس، والفبركة، والهمبكة، والخسيس، والجبان...إلخ.

- ازدواجية الدور في مجتمعات الظلم:

يشتمل الهرم الاجتماعي في المجتمعات، التي تسود فيها علاقات التبعية مثل علاقة الظلوم والجهول أو السيد-التابع عدداً كبيراً من السادة، الذين يزداد عددهم كلما انتقلنا من رأس الهرم إلى قاعدته، وكذلك الحال بالنسبة لعدد الأتباع، ويختلف الأسياد في رتبهم ودرجاتهم، وذلك باختلاف حجم وأسباب قوتهم وهي التي تحدد رتبهم ومواقعهم في سلم الهرم الاجتماعي، وعادة يقل مستوى ورتبة السيد كلما انتقلنا من رأس الهرم الاجتماعي إلى قاعدته.

تأخذ العلاقة بين السادة بعضهم مع بعض في هذه الشبكة الهرمية نمط العلاقة الرأسية غير المتكافئة، وهذه تقوم على نفس مبدأ علاقة السيد والتابع، فالسيد من الرتبة الخامسة يكون تابعاً للسيد من الرتبة الرابعة، والسيد من

الرتبة الرابعة يكون تابعاً للسيد من الرتبة الثالثة وهكذا، بمعنى أن السيد يؤدي دوراً مزدوجاً، حيث يقوم بدور السيد ودور التابع في نفس الوقت، فهو يكون سيداً على من دونه رتبة من الأسياد، وفي الوقت نفسه يكون تابعاً للسيد الأعلى منه رتبة في الهرم الاجتماعي: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة:١٦٥).

من جانب آخر تأخذ العلاقة بين الأسياد أو السادة من نفس الرتبة أو المستوى في الشبكة الهرمية نمط العلاقة الأفقية، فالسادة من نفس الرتبة والمستوى تقوم بينهم علاقات منافسة متكافئة وأحياناً صراع لكسب رضا السادة من رتب أعلى، وبالتالي تحقيق مزيد من المنافع.

يمارس السادة المترفون ذوو الرتب العليا في الهرم الاجتماعي غالباً كل أشكال الظلم والفساد مع السادة من درجات ورتب أقل في سبيل المحافظة على مراكزهم الاجتماعية وامتيازاتهم أولاً، وتحقيق مزيد من المكاسب لصعود سلم الهرم الاجتماعي إلى مواقع ورتب أعلى ثانياً، ويقلدهم الأتباع أو العبيد بنفس الطريقة والأسلوب، وبالتالي يمارس كل فرد في المجتمع «سسيولوجيا» ثنائية، بحيث يمارس الظلم والتجبر على من دونه والخنوع والتذلّل لمن فوقه: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ (فاطر:٤٠)، وهذا النمط من العلاقات الرأسية يقوم على فكرة أبي حيان التوحيدي: «ما تجبر شخص في من دونه إلا بمقدار ما تصاغر لمن فوقه»، ورحم الله تعالى من قال:

وما يد إلا يد الله فوقها

وما ظالم إلا سيُبلى بأظلم

ويقول عبد الرحمن الكواكبي: «إن الاستبداد يكوّن مجتمعاً من الأسيرين، الذين يُخضعون الناس، فيجعلونهم أسرى يبغضون المستبد، ولا يقوون على محاربته، لذلك يتعادون فيما بينهم، ويظلمون ضعفاءهم ونساءهم، فيصبح كل إنسان مظلوماً من جهة، وظالماً من جهة أخرى»[1]، وقد قيل: «من سلب نعمة غيره، سلب نعمتَه غيرُه»[2]، وقيل أيضاً: «من أعان ظالماً على ظلمه سلّط الله عليه»[3]، وقال ابن المقري في لاميته:

لا يظلم الحر إلا من يطاوله

ويظلم النذل أدنى منه في الصول

يا ظالماً جار فيمن لا نصير له

إلا المهيمن، لا تغتر بالمهل

غداً تموت ويقضي الله بينكما

بحكمه الحق لا بالزيغ والميل

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي، الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ص٨٨.

(٢) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(٣) عبد الرحمن الكواكبي، الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ص ٤٤١.

أدى استشراء الظلم، والدور المزدوج لكل فرد، كظالم تارة ومظلوم تارة أخرى، إلى تشكيل صورة سوداوية عند كثير من الناس في المجتمعات المعاصرة، بحيث تولّد لديهم قناعة بأن الناس قد أصبحوا، في هذه المجتمعات، قسمين هما: ظالم ومظلوم، أو قوي وضعيف أو مستضعف، بحيث يكون حال الناس في هذه المجتمعات كما قال أحدهم: «بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر»[1]، إنها جاهلية العصر، التي قال فيها زهير بن أبي سلمى في الجاهلية الأولى:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه

يُهدّم ومن لا يَظلم الناسَ يُظلم

- جماعات المصالح في مجتمعات الظلم:

تتشكل في مجتمعات الظلم وضمن شبكة العلاقات الاجتماعية بين الأسياد مجموعات مصالح على نوعين:

- النوع الأول: ينجم بفعل العلاقات الاجتماعية الرأسية، ويتمثل في جماعات مصالح غير متكافئة، وغير متوازنة قد تجمع بعض الأسياد من مستويات ورتب مختلفة في الهرم الاجتماعي.

- النوع الثاني: يرتبط بالعلاقات الاجتماعية الأفقية، حيث تتشكل أحياناً جماعات مصالح متكافئة ومتوازنة تجمع الأسياد من نفس الرتبة

---

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، مرجع سابق، ص ١٦٤.

والمستوى الاجتماعي فقط، لتحقيق مصالحهم بكل السبل وبدون أي وازع ديني أو إنساني أخلاقي، يقول المولى عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ (الفرقان:٢٧-٢٩).

وجماعات المصالح بنوعيها ما هم إلا طغاة صغار في ظل طاغية كبير «وهكذا الشأن بين كبار اللصوص ومشاهير القراصنة: فريق يستكشف البلد، وفريق يلاحق المسافرين، فريق يقف على مرقبة وفريق يختبئ، فريق يقتل وفريق يسلب، ولكنهم رغم تعدد المراتب بينهم، وكانوا بعضاً توابعَ وبعضاً رؤساء، إلا أنه ما من أحد منهم إلا خرج بكسب ما»[1].

(١) اتين دي لابويسيه، العبودية المختارة، مرجع سابق، ص١٣٢.

الفصل السادس

ثنائيات الظلم

تتشكل مجتمعات الظلم جراء آليات علائقية تعمل على إنتاج كل أشكال العسف، وهذه الآليات تظهر غالباً في صورة علاقة ذات طرفين أو على شكل ثنائية، والغريب أن هذه الثنائيات هي نفسها ماكنة الظلم، التي تعيد إنتاجه بصور وأشكال مختلفة، وسنحاول فيما يلي استعراض بعض هذه الثنائيات بنوع من التفصيل، لنرى كيف تشكل هذه الثنائيات صوراً من صور الظلم وفي الوقت نفسه الماكنة، التي تعيد إنتاجه.

- ثنائية الريع والسلطة:

ثنائية الريع- السلطة هي إحدى ماكنات إنتاج الظلم الاقتصادي- الاجتماعي بصوره وأشكاله المختلفة، فقد تناول الريع كبار الاقتصاديين التقليديين أمثال «آدم سميث» و«ريكاردو» في دراساتهم الاقتصادية، إلا أن توظيف هذه الفكرة في دراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية وفي تحليل سلوكيات الدول والمجتمع يعود بالدرجة الأولى للاقتصادي الإيراني حسين

المهداوي في دراسته التطبيقية عن إيران[1]، حيث أظهر هذا الباحث دور ثنائية الريع والسلطة في خلق أوضاع من اللامساواة الاقتصادية والاجتماعية بين السكان في المجتمعات الريعية، على الصعيدين المكاني والطبقي، وذلك من خلال قيام الدولة بتحصيل الريع من مصادره ومن ثم إعادة توزيعه على السكان وفق معيار أسباب القوة، التي يمتلكها كل فرد أو جماعة، وعلى أساس مقدار الموالاة والتأييد للدولة.

تتمحور العلاقات الاجتماعية في المجتمع الريعي حول الأشياء أولاً، والأشخاص ثانياً، وليس حول الأفكار، وتتسم هذه العلاقات بكونها علاقات تبعية (سيد-تابع، أو يملك-لايملك) وتتكاثف هذه العلاقات على محورين رئيسين هما:

١- مصادر الريع:

الدخل في المجتمع الريعي هو في الغالب خارجي، بأشكال ومصادر مختلفة، أهمها: العائدات الناجمة عن استخراج الثروات المعدنية ومصادر الطاقة، والرسوم، التي يتم تقاضيها عن مرور أنابيب النفط في منطقة ما، ورسوم استخدام وعبور القنوات المائية مثل قناة السويس، والقروض والمساعدات التنموية والهبات، وأخيراً

(١) H.Mahdauy, Patterns and problems of Economic Development in Rentier State- The Case of Iran, in:M.A.Cook.(edt),Studies in Economic History of the Middle East from the Rise of Islam to the Present Day, London, 1970.

تحويلات العاملين في الخارج[1]، وجميع مصادر الريع هذه ليس لها علاقة بدورة الإنتاج الاقتصادي في المجتمع، ولهذا السبب كانت النشاطات الريعية ومن يمارسها تتعرض باستمرار لنقد شديد من قبل الاقتصاديين، الذين يعتبرون الريع كسباً غير مبرر، لأنه لا ينتج عن أي جهد منتج.

٢- دور الحكومة في توزيع الريع:

الحكومة في المجتمع الريعي هي التي تقوم بإيجاد كل أنواع الريع باستثناء تحويلات العاملين، والحكومات في الدول الريعية هي التي تسيطر على موارد المجتمع وثروته، وهي في الوقت نفسه تقوم بتوزيعه من خلال كونها أكبر مصدر للتوظيف واستخدام العمالة، ومن خلال تحكمها بحجم ونوع الاستثمارات والجهات المستفيدة من ذلك في المجتمع، وهذا الوضع يمكّن الحكومات من فرض وتشكيل نمط من العلاقات الريعية أو علاقات التبادل المصلحي وهي علاقات تبعية (سيد-تابع، أو يملك-لايملك)، التي يكون الهدف منها توجيه ولاء عامة الناس للسادة في المجتمع، كل حسب موقعه في الهرم الاجتماعي.

والحكومة أيضاً هي التي تقوم بتوزيع هذا الريع على هيئة منافع ومكاسب على السكان، وعادة ما تتم عملية التوزيع ضمن أسس ومعايير سياسية لا اقتصادية واجتماعية، بحيث يستأثر عليّة القوم أو السادة والنخب وأصحاب

---

(١) Claudia Schmid, Das Konzept des Rentierstaates-Ein Sozial-wissenschaftliches Paradigm zur Analyse von Entwicklungsgesellschaften and sein Bedeytung fuer den Fordern Orient, Institut fuer Politische Wissenschaften der Universitaet Hamburg, 1992,S,59.

المصالح الخاصة، والمتنفذون بقسم كبير من هذه المنافع، خصوصاً في مجال العطاءات الحكومية ورخص الاستيراد والتصدير.. إلخ، وذلك من خلال المواقع الوظيفية في القطاع العام، وهذا الاستئثار هو نوع من التبادل المصلحي والمنفعي بين الحكومة من جهة والفئات والشرائح والمتنفذة من جهة أخرى.

يعمل توزيع الريع ممثلاً بالوظائف والاستثمارات والعطاءات والوكالات..الخ في الدولة الريعية على أسس وعلاقات مصلحية على تحويل المجتمع إلى مجتمع ريعي، تتسم بنيته بالهرمية والتراتبية، وتتميز علاقاته بالتبعية، وتقوم هذه العلاقات على مبدأ المنفعة والتبادل المصلحي غير المتكافئ، ليصب كل ذلك في النهاية في مصلحة السادة أو «الباترونات»، الذين تتجمع في أيديهم ثروة المجتمع، وليتشكل بفعل هذه العلاقات تحالف السلطة والمال، الذي يقود عملية الإفساد في المجتمع ويهلك الحرث والنسل.

يؤدي خضوع عملية توزيع الريع أو الثروة في الدولة الريعية لمبدأ المصلحة والتبادل المنفعي، إلى اللامساواة في هذا التوزيع، سواء أكان ذلك على مستوى الشرائح السكانية أم المناطق والأقاليم في هذه الدولة، فتوزيع الخدمات والاستثمارات في الدولة الريعية ينسجم ويتسق مع توزيع أسباب القوة فيها، بمعنى أنه قد تستأثر منطقة يوجد فيها متنفذ أو مجموعة من المتنفذين بمستويات ممتازة من الخدمات والاستثمارات التي تكون أكثر من حاجتها، في الوقت الذي تحتاج فيه مناطق أخرى لمثل هذه الخدمات، ولا تحصل عليها، لأنها تفتقر لوجود متنفذين يملكون السلطة لتحقيق ذلك، وغالباً يستأثر المركز

أو العاصمة باهتمام الحكومة في الدولة الريعية دون غيره من مناطق وأقاليم الدولة، الأمر الذي يؤدي إلى بروز الفوارق الاقتصادية والاجتماعية بينه وبين مناطق وأقاليم الدولة الأخرى.

إن نمط علاقات التبعية، التي تقوم على أسس مصلحية في المجتمع الريعي، يعمل بمرور الزمن على تطوير وخلق العقلية الريعية، وهذه العقلية تستخدم الموارد في المجتمع لتحقيق فوائد ومنافع خاصة، ودون خلق أي إضافة أو أي مخرجات جديدة[1]، فهي عقلية يهمها الربح بالدرجة الأولى وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، ومن غير أن تبذل أي جهد، لذلك فهذه العقلية إلى جانب أنها اتكالية، فهي لا تتورع أن تسلك في سبيل ذلك سُبلاً شتى، وتتبع مختلف الأساليب، فولاؤها يتبع مصادر نفعها، لذلك فهي عقلية ليست وطنية الولاء، إنما هي عقلية أنانية، قد تكون جهوية أو إقليمية أو حتى طائفية، لكنها أولاً وأخيراً لا تنظر إلا لمصلحتها الخاصة، وهكذا تؤدي هذه العقلية بخلفياتها وأسباب ظهورها إلى استشراء الفساد والظلم في المجتمع.

وهكذا تعمل ثنائية الريع والسلطة بنمط علاقاتها الاجتماعية على تكريس وتجذير اللامساواة المكانية والطبقية داخل المجتمع الريعي، إلى جانب أنها تعيد إنتاج صور وأشكال مختلفة من الظلم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي المرتبط بهذه الحالة.

The Economist, Feb, 9th,1991,p.18. (١)

- ثنائية المركز والهامش:

تعرف ثنائية المركز والهامش أحياناً بثنائية القلب والأطراف، والعلاقة القائمة بين طرفي هذه الثنائية هي علاقة تبعية، حيث تتبع الهوامش للمركز أو تتبع الأطراف للقلب، وقد كان «راؤول بريبش» أول من استخدم مصطلح المركز والهامش على مستوى العالم، حيث وجد في دراسته لعلاقة التبادل التجاري بين الشمال والجنوب أو الدول الصناعية والدول النامية، أن حالة التخلف والإفقار في دول العالم النامي ترتبط بأنواع ثلاثة من التبعية للعالم الصناعي هي:

- التبعية الاستعمارية.
- التبعية المالية - الصناعية.
- التبعية التكنولوجية الصناعية.

وتذهب نظرية الإمبريالية البنيوية، التي وضعها الاقتصادي السويدي «يوهان كالتونج» الأستاذ في المعهد الدولي لأبحاث السلام في استوكهولم، إلى التأكيد بأن السبب الرئيس للامساواة في توزيع الموارد بين الدول الصناعية والدول النامية ناجم بالدرجة الأولى عن حالة من التسلط والهيمنة والاستغلال، التي تمارسها الدول الصناعية أو المركز على الدول النامية أو الهامش، وأطلقت النظرية على أوضاع التسلط والهيمنة والاستغلال هذه مفهوم الإمبريالية[١].

---

(١) عثمان غنيم، مقدمة في التخطيط التنموي الإقليمي (عمان: دار صفاء) ص١٥٢.

والإمبريالية هي آلية يتم من خلالها تقسيم الدولة الواحدة إلى مركز وهامش (حضر - ريف)، أو تقسيم دول العالم إلى مركز وهامش (دول صناعية- دول نامية) وهذه الأطراف، سواء أكان ذلك على مستوى الدولة الواحدة أم على مستوى العالم، تختلف في مصالحها، ويبلغ الخلاف المصلحي بينها أشده، حيث تظهر العلاقة المتبادلة بينهما فارقاً كبيراً في مستويات دخول الأفراد ومستويات معيشتهم، الأمر الذي يؤدي إلى استمرار هذه الفجوة واتساعها.

وإمبريالية المركز عند «كالتونج» على مستوى العالم، تتمثل في حزمة من آليات الاستغلال والهيمنة والتسلط، وفي عدة جوانب هي[1]:

- الإمبريالية السياسية والإدارية، وتتمثل في أن المركز هو الذي يصنع القرارات الاقتصادية والسياسية والثقافية في الوقت الذي يقتصر فيه دور الهامش على الالتزام بهذه القرارات فقط.

- الإمبريالية الصناعية - التكنولوجية، حيث تتركز جميع وسائل الاتصالات ومصادر المعلومات في المركز.

- الإمبريالية الثقافية، وتعني أن يكون المركز وحده هو مصدر التحديث والتجديد.

أما على مستوى الدولة الواحدة، فتقوم فكرة المركز والهامش على أن التنمية في دولة ما ترتبط بالظروف والخصائص الطبيعية والتاريخية لهذه الدولة ولأقاليمها، حيث تؤدي الحركة الحرة للقوى الاقتصادية والاجتماعية إلى زيادة الفوارق واللامساواة المكانية بأنواعها المختلفة بين المركز، الذي تمثله عادة

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٣.

المدينة الأولى أو العاصمة، والهامش الذي تمثله الأرياف، ويحدث ذلك من خلال «ميكانزم» الهيمنة والتبعية.

فضعف القوى الشرائية في الأرياف نتيجة انخفاض مستويات دخل السكان، وانخفاض الهامش الربحي للمشروعات المختلفة، وعجز الاقتصاد الريفي عن توفير فرص عمل دائمة وبدخول جيدة، وتدني مستوى الخدمات العامة وخدمات البنية التحتية، وانتشار وسيادة العقلية التقليدية، التي ترفض التحديث والتجديد ولا تقبله بسهولة، كل هذه العوامل مجتمعة تعمل على غسل مقدرات الهوامش أو الأرياف لصالح المدن، حيث تتوافر التسهيلات الاقتصادية، وخدمات البنية التحتية، والخدمات العامة بنوعية جيدة، وترتفع مستويات الدخل، ومستويات المعيشة للسكان والأيدي العاملة، مع وجود إمكانية تحقيق هامش ربحي كبير للمشاريع الاقتصادية المختلفة، فتهاجر الأيدي العاملة المتعلمة، والفنية ورأس المال، والمنتجات الزراعية من المناطق الريفية (الهامش) إلى المدينة (المركز)[1].

ويتزايد عدد سكان المركز نتيجة هيمنته على الهامش، فهو يقوم بغسل مقدرات الهامش من سكان وأيدي عاملة لحسابه، فيزداد الطلب فيه على المنتجات الزراعية والمواد الأولية، التي تنتج في الهامش، ولكي يتم إشباع حاجات المركز المتزايدة من هذه المواد، يتم تزويد الهوامش بتقنيات زراعية جديدة، تساعد في زيادة وتطوير وتحسين وزيادة الإنتاج الزراعي، وذلك من

(١) المرجع السابق، ص١٤١.

أجل إشباع الطلب المتزايد على هذه المنتجات في المركز، الأمر الذي يؤدي إلى استفحال اللامساواة المكانية، وبروز ازدواجية اقتصادية واضحة عند المقارنة بين اقتصاد المركز واقتصاد الهامش، فاقتصاد المركز صناعي قوي وحديث متطور، واقتصاد الهامش زراعي ضعيف وتقليدي متهالك.

تستمر عملية غسل مقدرات الهامش بهذا الشكل لصالح المركز، ويستمر تدفق الأيدي العاملة ورؤوس الأموال والمواد الأولية، مما يؤدي إلى نمو المركز واتساع أسواقه على حساب الهامش، الأمر الذي يعمل تعظيم الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين طرفي المعادلة، فتزداد قوة المركز وهيمنته على الهامش، وكذلك تزداد تبعية الهامش للمركز.

وتجدر الإشارة إلى أنه لا يمكن فصل علاقات التبعية والهيمنة بين الريف كهامش والمدن كمركز داخل الدولة الواحدة عن علاقات التبعية والهيمنة على مستوى العالم، فالريف هامش للمدينة، التي هي مركز في الدولة النامية، لكن المدينة في الدول النامية هي في نفس الوقت هامش للدولة الصناعية، التي هي مركز على مستوى كوكب الأرض، وما ينطبق على الدول، ينطبق على الأفراد والسكان.

فعلاقات الهيمنة بين الدول النامية من جهة والصناعية من جهة أخرى، تعكس في حيثياتها علاقات الهيمنة بين سكانهما، فالفئات المسحوقة في قاعدة الهرم الاجتماعي في الدول النامية، تخضع وتتبع للفئات ذات النفوذ في المستويات العليا من الهرم الاجتماعي، وهذه بدورها ترتبط وتخضع للمستعمر الخارجي أو للرأسمالي في الدول الصناعية أو الدول الغربية بشكل عام، وبالتالي

فعلاقات الخضوع والهيمنة المولّدة للظلم بكل أشكاله تسود ليس فقط على مستوى الدولة، بل وأيضاً على المستوى الدولي، وعليه فالظلم في هذه الحالة ليس فقط مشكلة محلية أو قطرية بل هو أيضاً مشكلة دولية وعالمية، فإذا كان التابع يشعر ويتملكه إحساس بالدونية تجاه سيده على المستوى المحلي (علاقات هيمنة داخلية)، فإن السيد يتملكه الإحساس بالدونية نفسها تجاه الأوروبي أو الغربي أو الرأسمالي (علاقات هيمنة خارجية)، وهكذا تقود آليات الاستغلال والتبعية والهيمنة إلى عولمة الظلم.

على صعيد آخر، يرى البعض أن الصراع في دول العالم النامي لم يعد يأخذ شكل الصراع الطبقي بين العمال ورأس المال، أو بين المصالح الأجنبية والمصالح الوطنية، بل أصبح صراعاً بين سكان الريف وسكان المدن[1]، حيث يعكس رصد الموارد داخل كل من المدينة والقرية وبينهما أولوية حضرية أكثر مما يركز على المساواة أو الفاعلية، بمعنى أن الموازنات الحكومية وعوائد التنمية يتم توزيعها بين الأرياف والمدن بدون إنصاف، حتى في القطاعات، التي تستهدف الفقراء أنفسهم مثل قطاعات التعليم والصحة، وهذا بدوره يقودنا إلى القول: إن السياسات التنموية الحكومية هي نفسها التي تحول وتعيق دون تدفق الآثار التنموية من المدينة باتجاه الريف، وإن حدث ذلك يكون محدوداً، ويصب غالباً في صالح المدينة، الأمر الذي يؤدي باستمرار إلى تعظيم المزايا الاقتصادية في المدن وعلى حساب الأرياف، وهذه اللامساواة المكانية، هي

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٩.

ظلم قبيح لقطاعات عريضة من السكان، هي الأكثر حاجة لعوائد النمو والتنمية، لكي يتوفر لها الحد الأدنى من العيش الكريم.

إن تركز السلطة وأدواتها ومؤسساتها في العاصمة، وطبيعة الهياكل الإدارية الهرمية، وغياب الحريات السياسية، وضعف المشاركة الجماهيرية في التخطيط وتنفيذ الخطط التنموية، لا يؤدي فقط إلى زيادة اللامساواة والفوارق الاقتصادية والاجتماعية بين المناطق الحضرية والريفية، وإنما يعمل على إشاعة جو من الإحباط لدى سكان الريف، إن كثيراً من الاستثمارات، يمكن أن تحقق أرباحاً طائلة، لو قدّر لها أن تستثمر في الريف، ورغم ذلك يتم استثمارها في المدن، والسبب في هذا التحيز الحضري هي مصالح النخب والمتنفذين وصنّاع القرار، سواء أكانوا سياسيين أم رجال أعمال، والذين يتحكمون بدورهم ومن خلال مواقعهم في توزيع ورصد الموارد، وخصوصاً الحكومية منها، إن النخب الحضرية لا تتمتع بالسلطة الاقتصادية فقط، بل وتمتاز بترابطها وتنظيمها وتحالفها مع بعضها، لذلك فإن المدن سرعان ما تتحقق رغباتها وحاجاتها، وتهمل حاجات سكان الأرياف، التي تستمر في انتظار تساقط رذاذ التنمية وعوائدها..

إن سكان الأرياف في معظم دول العالم النامي أكثر من سكان المدن، ولكنهم غير منظمين أو مؤطرين سياسياً، إلى جانب أنهم فقراء، وهذا يجعلهم عديمي التأثير، على الأقل على صعيد القرارات التنموية، لذلك فإنهم يهاجرون إلى المدن للاستفادة من فرص العمل هناك، والحصول على دخول جيدة، دون أن يحاولوا أن يوظفوا ويستثمروا هذه الدخول أو مدخراتهم في مواطنهم الريفية

الأصلية، بل على العكس من ذلك يسعون إلى تحسين مستويات حياتهم بشراء الكثير من السلع الكمالية ذات المصدر المديني، فيتكدس رأس المال في المدن دون الأرياف، ويبقى سكان الأرياف يكابدون الفقر والحاجة.

لقد أدى الظلم على مستوى العالم، ممثلاً بإمبريالية المركز (الدول الصناعية) إلى استشراء كثير من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية، وبالذات في الدول النامية، وفي الأرياف بشكل خاص، فبالرغم من أن العالم أنتج عام ١٩٨٥م نحو ٥٠٠ كغم لكل فرد من الحبوب والمحاصيل، إلا أن نحو ٧٣٠ مليون إنسان ما زالوا لا يحصلون على الغذاء الكامل الكافي، الذي يضمن لهم حياة صحية وسليمة، معظمهم من سكان الهوامش (الدول النامية)، وسكان الأرياف بالتحديد[١].

ويقدر البنك الدولي أن حوالي ١,٣ بليون إنسان يعيشون في فقر مدقع وبدخل لا يتجاوز الدولار أو أقل يومياً، معظمهم من سكان الهوامش أو الأرياف[٢].

وفي الوقت الذي يفتقر فيه نحو ١٥٠٠ مليون نسمة إلى الخدمات التعليمية في الهوامش (الدول النامية)، فإن هناك ٨٠٠ مليون أمي، ونحو ٢٥٠ مليوناً محرومين من التعليم، وحوالي ١٣٠٠ مليون إنسان يقل دخلهم السنوي عن ٩٠ دولاراً، وقرابة ١٣٠٠ مليون إنسان ليس لديهم مأوى لائق[٣].

---

(١) اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، مستقبلنا المشترك، ترجمة محمد كامل عارف، سلسلة عالم المعرفة، عدد١٤٢ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٩م) ص١٥٣.
(٢) ستيفن هايني، تغيير المسار، ترجمة علي حين حجاج (عمان: دار البشير) ص٢٣٣.
(٣) فيديركو ثاراجوثا، نظرة في مستقبل البشرية-قضايا لا تحتمل الانتظار، ترجمة محمد مكي (القاهرة: الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، ١٩٩٠م) ص٤٥.

وقد لوحظ أنه منذ عام ١٩٦٠م كلما اغتنى الهامش (العالم الثالث) بدولار واحد اغتنى المركز (الدول الصناعية) بحوالي ٣٠٠ دولار، الأمر الذي أدى إلى تزايد الفارق في الدخل بينهما خلال الفترة ١٩٦٠- ١٩٩٠ بنحو ٢٥٠%[(١)].

ويكاد الدخل القومي الياباني يعادل الدخل القومي لجميع سكان الدول النامية البالغ عددهم ٣,٨ بليون نسمة، علماً بأن عدد سكان اليابان لا يتجاوز ١٢٠ مليون نسمة، وتركزت في الولايات المتحدة الأمريكية ودول الاتحاد الأوروبي واليابان نحو ٩٥% من إجمالي تمويل أسواق الأسهم العالمية، وتساهم بقية دول العالم بـ ٥% فقط، وفقاً لما تقوله هيئة التمويل الدولية، في حين بلغت ديون أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا النامية نحو ١,٣٦٥ تريليون دولار مع نهاية عام ١٩٩٠م[(٢)].

وقد لوحظ أيضاً أن دخل الفرد في بعض البلاد الصناعية يصل إلى أكثر من ٢٥٠ ضعف دخل الفرد في بعض البلاد النامية، ويستهلك المواطن الأمريكي من الطاقة ما يماثل استهلاك ثلاثة يابانيين أو ستة مكسيكيين أو ١٣ صينياً أو ٣٥ هندياً أو ١٣٥ بنغالياً أو ٤٩٩ أثيوبياً، ويبلغ ما ينفق على تسليح الجنود ٧٠ ضعف ما ينفق على تعليم الأطفال، وهناك ٣٠ مليون إنسان يموتون سنوياً من الجوع[(٣)].

---

(١) المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى، مستقبل الماضي وماضي المستقبل (الدار البيضاء: عيون، ١٩٩١م) ص٤٣.

(٢) هايني، تغيير المسار، مرجع سابق.

(٣) ثاراجوثا، نظرة في مستقبل البشرية، مرجع سابق، ص٤٦-٥١.

وفي الوقت الذي ينفق فيه العالم نحو مليون دولار كل دقيقة على التسلح، فإنه يمكن بثمن صاروخ واحد من الصواريخ العابرة للقارات، تزويد ما مجموعه ٥٠ مليون طفل من جوعى قارتي آسيا وإفريقيا بالغذاء، أو يمكن بالثمن نفسه تشييد ٦٥ ألف مركز طبي، أو بناء ٣٤ ألف مدرسة ابتدائية، ويمكن بثمن غواصة نووية إنشاء ٤٠ ألف مسكن شعبي، ويمكن بثمن طائرة قاذفة نووية بناء ٧٥ مستشفى سعة الواحد منها مائة سرير[١].

إن هذا الظلم وهذه اللامساواة في توزيع عوائد النمو والتنمية بين الدول على مستوى الكرة الأرضية، وعلى مستوى الأقاليم داخل الدولة الواحدة، وبين القطاعات الاقتصادية والاجتماعية، تشكل المعضلة الاقتصادية والاجتماعية الأساسية، التي تواجه العالم، خصوصاً أن آليات السوق لا يعوّل عليها في إيجاد مساواة في توزيع الموارد[٢].

إن مما يؤسف له أن جهود التنمية في عقود ما بعد الحرب العالمية الثانية في كثير من دول العالم، لم تقم على أساس تحسين الظروف المعيشية لعامة الناس العاديين، بل قامت من أجل تحقيق معدلات نمو مرتفعة في الناتج القومي الإجمالي، بغض النظر عن محتوى وتركيب وتوزيع هذا الناتج مكانياً وطبقياً، الأمر الذي أدى إلى استئثار فئة قليلة من السكان بثمار هذا النمو،

---

(١) www.alukah.net/Web/rommany/0/20704

(٢) رمزي زكي، المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة، سلسلة عالم المعرفة، العدد:٨٤ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٤م) ص٤٥٥.

في الوقت الـذي ترك فيـه غالبية السكان في كثير مـن بقـاع الأرض يعيشـون على هـامش التقـدم وخـارج دائرة التنمية[1]، وهـذا مـا يؤكـده «تومـاس كـاريل» في مقولته: «وفي هذه اللحظات التي نشهد فيها رقياً عظيماً يؤسفني أن أقول: إن تسـعة أعشـار الإنسـانية مضـطرة لخـوض أحـط معركـة حيوانيـة بـل وحشـية خاضها الإنسان في تاريخه، وهي المعركة ضد الجوع وما يعانيه من استغلال شره ومظالم فاحشة»[2]، (الجدول رقم ٢).

الجدول رقم (٢)

الإنفاق العسكري مقارنة بالإنفاق على التعليم والصحة في العالم لعام ١٩٩٦م

المنطقة	متوسط الإنفاق العسكري لكل جندي	متوسط الإنفاق في التعليم لكل طالب	متوسط الإنفاق على الصحة لكل فرد
العالم	٣١٤٨٠	٨٩٩	٢٣٠
الدول الصناعية	١٢٣٥٤٤	٧٦٧٥	١٣٧٦
الدول النامية	٩٠٩٤	١٤٣	٢٢

المصدر: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ٢٠٠١م.

(١) رمزي زكي، المشكلة السكانية، مرجع سابق، ص٤٣٥.

(٢) ثاراجوثا، نظرة في مستقبل البشرية، مرجع سابق، ص ٢٤٦.

إن اللامساواة في توزيع عوائد النمو والتنمية ظلم وخطر كبير يهدد الإنسانية، لأنه كما يقول «رينه ماهو» المدير العام السابق لليونسكو: «إذا كان للإنسانية قدرة لا محدودة على المعاناة من تجربة قاسية في الفقر وجهد مفرط من شدة احتماله، فإنه لا يمكن التسامح عندما يتعلق الأمر باللامساواة»[1]، لذلك فإن الاعتراض على الوضع الحالي أمر ضروري من وجهة نظر أخلاقية وإنسانية، وذلك لدفع البشرية لتصحيح ما يلاحظ بين بلاد العالم من تفاوت ولامساواة في مستويات الحياة والعمل على إيجاد ما ينبغي من توازن[2].

مما تقدم يمكن القول: إن ثنائية المركز والهامش هي صورة كبيرة للظلم الاقتصادي والاجتماعي على مستوى الدولة الواحدة والعالم، وهذه الثنائية لا تعكس حالة الظلم واللامساواة فقط بل تعمل على إنتاجهما بصور وأشكال مختلفة، وبالتالي فهي ثنائية مولّدة للظلم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

(١) المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى، مرجع سابق، ص ٤٣٢.

(٢) تاراجوتا، نظرة في مستقبل البشرية، مرجع سابق، ص ٤٣.

- ثنائية الإنسان والبيئة:

خلق الله سبحانه وتعالى الأرض بما فيها من نعم وخيرات، وسخرها لخدمة الإنسان، لكي يستعين بها على عمارة الأرض وعبادة الله تعالى وإقامة شرعه فيها، وقد حددت الشريعة أبعاد وطبيعة علاقة الإنسان مع البيئة بكل مكوناتها، وذلك للحيلولة دون الاعتداء عليها وتدميرها، ووضع في سبيل ذلك تعاليم وقواعد واضحة لا لبس فيها، فالاعتقاد السائد بأن وجود الموارد في الطبيعة غير محدود هو عين الظلم، وهدر الموارد واستنزافها والإسراف في استخدامها ظلم، وافتعال وخلق المشكلات البيئية ظلم، وأي صورة من صور الإضرار بالبيئة ظلم.

فمن منظور الشرع الحنيف، إن الموارد في الطبيعة محدودة: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر:٤٩)، لذلك لابد من المحافظة عليها واستغلالها برشد وعقلانية، بعيداً عن الإسراف والهدر: ﴿ ۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف:٣١)، وفي الحديث: «**طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الاثْنَيْنِ، وَطَعَامُ الاثْنَيْنِ يَكْفِي الأَرْبَعَةَ، وَطَعَامُ الأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ**»[1].

كذلك يجب استغلال الموارد وفق أسس العدل والمساواة: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ (طه:٨١)،

---

(١) أخرجه مسلم، حديث رقم ٢٠٥٩

وفي الحديث الشريف: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا زَادَ لَهُ»[1].

والآيات والأحاديث، التي تحض على ضرورة الابتعاد عن الظلم في التعامل مع البيئة كثيرة ويصعب حصرها، فالمحافظة على البيئة مسؤولية الجميع، أفراداً وجماعات ودولاً، لكن ومما يؤسف له، إن الإنسان وبابتعاده عن دين الله، طغى وبغى في تعامله مع البيئة، فانتشر الظلم البيئي - إذا جاز لنا هذا التعبير- في عالمنا المعاصر، بصورة لا تقل في خطورتها عن الظلم السياسي أو الظلم الاجتماعي.

فالإنسان اليوم يمارس من خلال استغلاله للبيئة وتعامله مع الأنظمة البيئية، كل أشكال التبذير والإسراف والهدر والاستنزاف، وبالتالي فهو متهم بتدميرها، كل هذا نتيجة الأنانية تارة والجهل وقلة الوعي تارة أخرى والاستغلال والطغيان تارة ثالثة، وقد نجم عن ذلك كثير من المشكلات البيئية التي أصبحت تهدد الحياة على الأرض، وتتسبب في خسائر مادية ومعنوية هائلة للبشرية جمعاء، وهذا ما يعبر عنه «باري كومونر» في كتابه «الدوامة» عندما يقول: «انقذوا الإنسان من الموت المؤكد، ساهموا في مكافحة التلوث، إن مدنية قبائل البوشمن في أفريقيا الوسطى الجافة والتي تسعى للتزود بكميات

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، حديث رقم ١٧٢٨.

ضئيلة من المياه في حفر تبعد مئات الكيلو مترات عن مكان إقامتها، هي أرقى- على بدائيتها- من مدنية الإنسان المعاصر في البيئة المرفّهة الأمريكية»[1].

ويذكرنا هذا التوصيف بمقولة الفيلسوف الألماني «غوته» في معرض حديثه عن عجز البشرية في تحقيق تقدم حقيقي، فيقول: «لقد صار الإنسان أكثر ذكاء ووعياً، لكنه لم يصبح أكثر سعادة، أو أنبل خلقاً»[2].

ويقول الدكتور رشدي فكار: إننا معاشر المسلمين «لن نستطيع أن نقدم للعالم طائرات أسرع، ولا طرقاً أنعم، ولا سيارات أجود، ولا صناعات أفضل، ولكن بإمكان الإسلام أن يقول: سأعطيكم إنساناً أكثر توازناً واعتدالاً، أكثر براً وإحساناً، إنساناً يرتبط بمبادئه، يهاب ويخشى خالقه، إنساناً يحترم الإنسان، ويعمل لإسعاده، لا الارتقاء بناطحات السحاب، واستنزاف الخيرات، في إطار من التحايل والمكر والدهاء والكيد»[3].

إن جهود التنمية المبذولة في كثير من دول العالم – التي تقوم على أشكال من التخطيط الجزئي وقصير المدى، بهدف تحقيق أقصى حد من المكاسب

---

(١) رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريني، البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة، ع:٢٢ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٧٩م) ص١٩٩.

(٢) نعمان السامرائي، نحن والحضارة والشهود، مرجع سابق، ص١٥٤.

(٣) نعمان السامرائي، المرجع السابق، ص٨٠.

والمنافع- السبب الرئيس في الظلم البيئي القائم في عصرنا، الأمر الذي يجعل هذه التنمية عاجزة عن المحافظة على التوازن الطبيعي بسبب استنزافها المتسارع لمعظم الموارد.. إن الكثير من أنماط التنمية السائدة والمطبقة هي أنماط ظالمة؛ لأنها تعمل على تدهور البيئة وتستنزف الموارد الطبيعية، التي تقوم عليها تلك التنمية، وذلك بسبب التصميم غير الرشيد لبرامجها، وهذه الحقيقة ليست قاصرة على دولة دون أخرى، بل تشمل الدول الصناعية والدول النامية على السواء[1].

ولعل أحد الأسباب الرئيسية الكامنة وراء الظلم البيئي أيضاً يتمثل في غياب العمل الإنساني المشترك في مواجهة الأخطار، «صحيح أن الأرض واحدة لكن العالم ليس كذلك»[2]، فكل مجتمع وكل دولة تسعى لتحقيق الرفاهية لسكانها بغض النظر عن آثار ذلك على الدول والمجتمعات الأخرى، وقلة من السكان تستهلك كميات هائلة من الموارد وتعيش حالة من الرفاهية والبذخ، في الوقت الذي تعاني فيه كثرة من الجوع وظروف حياة مهينة للكرامة الإنسانية، وسيبقى عدم قدرتنا على فهم مصالحنا المشتركة كبشر، وغياب العمل الإنساني المشترك نتيجة رئيسية للظلم وللغياب النسبي للعدالة الاجتماعية والاقتصادية بين الشعوب وداخلها[3].

---

(١) رشيد الحمد ومحمد صباريني، المشكلات البيئية، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

(٢) اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، مستقبلنا المشترك، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٦١، ص٩٠.

وإذا ما استمر النمو الاقتصادي العالمي الحالي على نفس الوتيرة دون أخذ الآثار البيئية بعين الاعتبار، فإن ذلك سيؤدي دون أدنى شك إلى نتائج بيئية كارثية، فخلال القرن العشرين ارتفع النمو الاقتصادي العالمي من ٣,٢ تريليون دولار عام ١٩٠٠م إلى ٣٩ تريليون دولار ١٩٩٨م، وتجاوز النمو الاقتصادي الذي حصل خلال الأعوام عام ١٩٩٥ – ١٩٩٨م مجموع النمو الاقتصادي للبشرية جمعاء منذ عشرة آلاف سنة[١]، وقد نجم عن هذا النمو الاقتصادي ظلم بيئي ومشكلات بيئية عديدة وخطيرة:

- فهناك ٣٣٠٠٠ نوع من الأجناس النباتية من بين ٢٤٢٠٠٠ جنساً أصبحت مهددة بالفناء.
- يهدد الفناء ١١% من الأجناس الحيوانية، التي يصل مجموعها إلى ٩٦٠٠ نوع.
- ارتفعت نسبة تركيز ثاني أكسيد الكربون في الجو من ٢٨٠ جزءاً في المليون منذ بداية عهد التصنيع إلى ٣٦٣ جزءاً في المليون عام ١٩٩٨م.
- أدخل النشاط الصناعي في القرن العشرين ملايين الأطنان من الرصاص والزنك والنحاس في البيئة، وقد تجاوزت الإطلاقات الصناعية من الرصاص مستواها الطبيعي بسبعة وعشرين مرة.
- فقد العالم خلال الفترة ١٩٨٠– ١٩٩٥م نحو ٢٠٠ مليون هكتار من الغابات[٢].

---

(١) هايني، تغيير المسار، مرجع سابق، ص ٤٠.
(٢) هايني، المرجع السابق.

تتطلب عملية المحافظة على البيئة والحد من الظلم البيئي والحيلولة دون هدر الموارد واستنزافها شرطين رئيسين هما[1]:

الشرط الأول: إنساني أخلاقي: حيث لا يجوز إفساد البيئة وتدميرها؛ لأن ذلك يتنافى مع أبسط القيم الإنسانية ومع عمارة الأرض.

الشرط الثاني: اقتصادي: يقوم على أن كل ما تحويه البيئة من موارد تشكل رأس المال الطبيعي، الذي هو أحد عناصر العملية الإنتاجية، ولا يجوز أن يستهلك الإنسان في النشاط الاقتصادي رأس ماله الحقيقي، وإلا فإن تجارته على المدى القصير والمتوسط ستكون تجارة خاسرة، وسيصل في لحظة ما إلى حالة من الإفلاس البيئي، وهذا إن دل فإنه يدل على غياب رؤية واضحة للكون ولعناصره وللعلاقات المتبادلة بين هذه العناصر والتي تعكس النواميس الأزلية، التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيه.

إن استنزاف رأس المال الطبيعي، بمعنى عدم المحافظة على البيئة وعلى مواردها وعناصرها، سيؤدي إلى شح مدخلات العملية الإنتاجية من الموارد بأنواعها المختلفة، وهذا يعني سيادة ندرة الموارد، وارتفاع أسعارها، ومن ثم ارتفاع أسعار البضائع والسلع، وبالتالي يقل الإنتاج وتتراجع دخول الدول والأفراد، وفي ظل مستويات دخول متدنية لن يتمكن الأفراد من إشباع حاجاتهم الأساسية من البضائع والسلع، وبالذات الضرورية كالغذاء، وبالتالي فإن الجوع في العالم ليس ناجماً عن نقص في موارد الغذاء، وإنما عن

(١) اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، مستقبلنا المشترك، مرجع سابق، ص٤٢

عدم قدرة الأفراد على شرائه بسبب الاستغلال والظلم الاقتصادي، الذي يؤدي إلى تدني دخولهم[1].

وعليه، فإن المشكلة تكمن أساساً ليس في زيادة إنتاج الطعام، وإنما في الحصول عليه من جانب الفقراء ومحدودي الدخل، وإذا كان الفقراء في كفاحهم للحصول على قوت يومهم مجبرين على استنزاف الموارد الطبيعية، فإن ذلك سيعمل على مزيد من فقرهم، مما يعقد حياتهم ويجعلها أكثر صعوبة[2].

وللحد من الظلم البيئي، فإنه لا بد من التعامل مع البيئة ومع عملية النمو الاقتصادي على أنهما عمليات متكاملة وليست متناقضة، ولا بد من خلق مجتمع أقل ميلاً للنزعة المادية، وبالتالي فإذا كان النمو الاقتصادي يمكن أن يحدث تلقائياً وبلا تنمية، فإن التنمية أيضاً يمكن أن تحصل بغير نمو وذلك من خلال التركيز على نوعية التغيير وليس على جانبه الكمي[3].

كذلك فإنه من الضروري أن تركز إجراءات الحفاظ البيئي على إعادة تعريف اللعبة الاقتصادية بحيث ينتقل العالم من وضع يقوم على ظلم البيئة وتدميرها إلى وضع يقوم على المحافظة على البيئة وصيانتها، وأيضاً من وضع يتمتع فيه الأقوياء بالامتيازات والحماية إلى وضع يجسد الفرص المتكافئة

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩.

(٣) المرجع السابق، ص٦٤.

والعــادلة لجميــع السكان[1]. وهــذا بدوره يعني أن هـذه الإجراءات تسعى إلى تغيــير مضمــون النمــو ليكون أقـل استنزافاً وهــدراً للموارد وأكثر عـدلاً في توزيع آثاره[2].

إن الظلم البيئي، وما ارتبط به من مشكلات بيئية، ليس ناجماً عن نقص في الموارد أو عجز في مخزون رأس المال الطبيعي لكوكب الأرض، بقدر ما هو محصلة لغياب الضوابط الأخلاقية والإنسانية في مجال سياسات وأساليب التنمية المطبقة، فهذه السياسات يغلب عليها بشكل عام طابع الأنانية، ويوجهها الاستغلال، وتتصارع فيها المصالح تحت ستار الشعارات والمبادئ، التي لا وجود لها في أغلب الأحيان على أرض الواقع، إنها سياسات وأساليب يسيطر فيها القوي على الضعيف، وتستنزف فيها الطبيعة تحت شعار تحقيق الرفاهية وزيادة النمو الاقتصادي، ويجوع فيها الكثير من أجل رفاهية القليل، الأمر الذي يقود إلى مزيد من الظلم والفساد والإفساد.

«أي قيمة يمكن أن تبقى محترمة مرعية في عالم يحافظ على نظام يقوم على التبذير السفيه من جانب بعض طوائف مجتمعه، في حين يزداد الفقراء فقراً... في عالم نرى فيه جهود العلماء والمخترعين موجهة إلى تدمير حياة الإنسان بدلاً من تمكينه من البناء؟»[3].

---

(١) هايني، تغيير المسار، مرجع سابق، ص ٣٨.

(٢) دوجلاس موسشيت، مبادئ التنمية المستدامة، ترجمة بهاء شاهين (القاهرة: الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، ١٩٩٧م) ص٢٩

(٣) ثاراجوثا، نظرة في مستقبل البشرية، مرجع سابق، ص ٧٥.

إن المشكلة «لا تقتصر على الاستنزاف المستمر والمنظم للموارد الطبيعية فحسب، بل تكمن أيضاً في تأثير المناخ النفسي، الذي يعشيه المجتمع المعاصر والذي يعاني فيه الإنسان من الإحساس بالانقطاع عن الطبيعة الأم وخوفه من الأخطار، التي تكمن في أحشائها، والشعور بالاغتراب الروحي في عالم فقد رغبته في الدفاع عن نفسه»[1].

إن التنمية المطلوبة هي تلك «التي تنبع جذورها من الذاتية التاريخية لكل شعب، القائمة على العدالة، المنفتحة على التعاون والتي لا تكتسب دلالاتها الحقيقية على التقدم إلا إذا كانت تدور حول محور جوهري هو الكرامة الإنسانية»[2]، وبالتالي، فإن المعيار الحقيقي والجديد للرقي في عصرنا يتمثل في القيم الأخلاقية، التي يجب أن تتوافر في الإنسان بصفته إنساناً.

إن الأوضاع البيئية المأساوية، التي وصل إليها عالمنا المعاصر قد دفعت إلى الإقرار بضرورة التغيير من أجل الإصلاح، ولكي يتم تطبيق رؤية الإصلاح بنجاح فإنه لابد أن يشتمل التغيير قيم السكان واتجاهاتهم وعاداتهم وتقاليدهم في المجتمع الإنساني ككل[3]، وهذا يعني أن أزمة القيم، التي يعيشها العالم وغياب الضوابط الإنسانية والأخلاقية للسلوك الفردي والجماعي والمجتمعي والدولي هي أحد الأسباب الرئيسة، التي أدت إلى هذه المأساة.

---

(١) اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، مستقبلنا المشترك، مرجع سابق، ص٨.

(٢) ثاراجوتا، نظرة في مستقبل البشرية، مرجع سابق.

(٣) موسشيت، مبادئ التنمية المستدامة، مرجع سابق، ص٢١.

لا شك أن «الخطر العظيم الذي نواجهه اليوم لا يكمن فقط في تلوث البيئة التدريجي، وإنما أيضاً في تلوث عقل الإنسان، لقد فقدت الحياة جاذبيتها؛ لأنه لم يعد هناك شيء غير عادي يلفت النظر بقوة، لم تعد هناك أسرار، وهكذا وصلنا إلى درب من الضجر ... الضجر في عالم فقد فيه الفرد ذاتيته، وتحول الناس فيه إلى جماهير من القطعان»[1].

ولأن جذور المحافظة على البيئة، والنجاح في تطبيقها يكمن في قيم السكان وأخلاقياتهم وثقافتهم في كل من الدول المتقدمة والنامية على السواء، لذلك فإن قهر التخلف في دول العالم النامي يجب أن لا يحدث من خلال تتبع هذه الدول لنفس الخطى، التي سار بها العالم الصناعي المتقدم، لأن ذلك سيؤدي إلى تكرار الأخطاء نفسها، التي أدت إلى الوضع الحالي من الاستهلاك غير العقلاني في الدول الصناعية والذي أدى بدوره إلى تسريع تدهور البيئة الاجتماعية والمادية فيها، إن هذه الأخطاء هي نتيجة حتمية لنسق غير إنساني من القيم مدمر في أغلبيته[2].

(١) ثاراجوثا، نظرة في مستقبل البشرية، مرجع سابق، ص٦٩.

(٢) زكي، المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة، مرجع سابق، ص٢١٨.

خاتمة

لا شك أن الظلم آفة ومرض خطير يهدد حياة المجتمعات والحضارات، لذلك لا بد من توفير الأدوات المناسبة واللازمة لمكافحته، لحماية المجتمعات الإنسانية من نتائجه وآثاره، وهذا لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال العودة للدين، الذي يغرس عقيدة التوحيد في العقول والقلوب، ويعززها لتفضي إلى تعظيم الله تعالى وإجلاله وخشيته في النفوس، وهذا بدوره سيعمل على خلق الوازع الداخلي في النفس والذي هو بمثابة البوصلة، التي تضبط وتوجه سلوك الفرد لينسجم مع كل ما أمر الله تعالى به، وهذا يعني توليد منظومة من الأخلاق والقيم والضوابط في المجتمع، من شأنها توجيه وتأطير السلوك الإنساني بما يخدم الإنسان نفسه، ويمكّنه من القيام بمهمته ودوره في عمارة الأرض.

على صعيد آخر، لا بد من احترام العلم والعلماء، ومنحهم الفرصة للقيام بدورهم الحقيقي في الحياة وضمن الضوابط والمعايير، التي يقررها الشرع الحنيف، فالعلم والدين هما وسائل التقدم والتطور، وهما أدوات مكافحة الظلم، وبالتالي فهما وجها الحياة الحقيقية، وبدونهما لن تستقيم الأمور،

فأي تقدم هذا الذي يجرّد فيه الإنسان من قيمه الروحية وأخلاقه السامية، وينزف إنسانيته في كل موقف يعيشه؟ أي تقدم هذا الذي يقود الإنسان في كل لحظة إلى الهوان والذل والخنوع؟ أي حضارة هذه التي تحولت فيها المجتمعات إلى غابة يأكل فيها القوي الضعيف، وتهدر فيها كرامة الإنسان من قبل أخيه الإنسان؟

إننا بلا شك بحاجة إلى بوصلة تقودنا عبر الزمان والمكان، بوصلة أساسها الأخلاق والعدل على وجه الخصوص لتلبية الاحتياجات الإنسانية[1]، بوصلة تفضي بنا إلى إدراك إنسانيتنا، وتقديرها واحترامها دون سواها، بوصلة تقودنا إلى احترام ذات الإنسان لا ما يملك، بوصلة توجهنا إلى حقيقة أن الدين والعلم هما حجر الزاوية في كل عمل إنساني، ولا شيء غير ذلك[2].

إن العالم الذي شكلناه بأساليب تفكيرنا المختلفة حتى الآن أوجد لنا مشكلات يصعب حلها بالتفكير بالأساليب نفسها، التي كنا نفكر بها عندما خلقنا تلك المشكلات كما يقول «أينشتاين»[3]، علينا أن ندرك «أن مصير البشرية لا يتوقف في النهاية على عقبات طبيعية لا تذلل، ولكن

---

(١) ليستر براون وآخرون، أوضاع العالم (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٠م) ص ٥٨.

(٢) ثاراجوثا، نظرة في مستقبل البشرية، مرجع سابق.

(٣) هايني، تغيير المسار، مرجع سابق، ص١٢١.

على عوامل اجتماعية وسياسية يمكن للبشر تعديلها، ولكن هذا ليس سهلاً على الإطلاق؛ لأن تغيير نظام وقيم المجتمع كما يظهر التاريخ أصعب بكثير من قهر الحدود الطبيعية، ولكن تنفيذ هذه المهمة هو الطريق الوحيد المتاح للتوصل إلى بشرية أفضل»[1].

وحين يكتشف الإنسان وجوه القصور في قدراته إزاء إمكاناته العظيمة وأنه لا أمل أو مستقبل له، خصوصاً أن كل شيء يوهمه بأنه مركز الكون ويعتبره ضماناً لتأكيد الدور الإيجابي لقيم الروح في الحياة، فإنه لا بد أن يستعيد الإنسان هذه القيم، فربما كانت الفردوس المفقود، الذي يبحث عنه[2].

---

(١) زكي، المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة، مرجع سابق، ص٢١٨.

(٢) ثاراجوثا، نظرة في مستقبل البشرية، مرجع سابق، ص٥٩.

الفهرس

وكلاء التوزيع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطر	دار الثقافة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٤٦٢٢١٨٢ ٤٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس:٤٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
البحرين	مكتبة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٢ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويت	مكتبة دار المنار الإسلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبة علوم القرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب:١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب:٣٣٧١ – عمان١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
اليمن	مجموعة الجيل الجديد	٧٨٠٤٠-٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨ -٧٥٨١١	ص.ب: ٥٤٤– صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦– الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مصر	دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦– الرباط
الجزائر	دار الوعي للنشر والتوزيع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة -الجزائر
إنكلترا	دار الرعاية الإسلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة – الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

موقعنا على الإنترنت:

www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريالات
السودان	(٥٠) قرشاً
عمان	(٥٠٠) بيسة
قطر	(٥) ريالات
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٦) جنيهات
المغرب	(١٠) دراهم
الجزائر	(١٢٠) ديناراً
اليمن	(٤٠) ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

- **مدخل:**

لمحة تاريخية: نشأة نظام الحكم وتطور أشكاله؛ أهمية الحكم لإدارة المجتمع وتوفير الأمن وفض المنازعات؛ تعريف عام بأنظمة الحكم..

- **المحاور:**

- **في تحرير بعض المفاهيم والمصطلحات:** الحكم من مقومات الإسلام؛ الحاكمية: بين شرع الله ودور الإنسان في تنزيلها على الواقع؛ الأمة؛ الدولة؛ الحكومة؛ الولاية؛ الخلافة؛ الإمامة؛ تطبيق الشريعة وعلاقة التكليف بالاستطاعة؛ دار الإسلام؛ دار الكفر؛ دار العهد.
- **مقومات الحكم الراشد ومسؤولياته:** التزام الشورى في اختيار الحاكم؛ الشورى في إدارة شؤون الحكم؛ تحقيق مقاصد الشريعة حقوق الإنسان (العدل؛ الحرية؛ المساواة...)؛ شرعية المحاسبة والمسؤولية: مسؤولية الحاكم؛ مسؤولية المواطن؛ مسؤولية الأمة؛ مؤهلات أهل الحل والعقد.
- **غياب الفقه السياسي:** أسباب توقف الاجتهاد السياسي؛ الخروج على الحاكم، بين المصالح والمفاسد؛ نظام الحكم بين القيم الضابطة لمسيرة الحكم في الكتاب والسنة والبرامج الاجتهادية.
- **الاجتهادات التراثية ودورها في إعادة البناء:** أبعاد التجربة التاريخية؛ وعطاؤها في الحاضر والمستقبل؛ تجديد وسائل النظر، والاجتهاد لإيجاد أوعية شرعية لمسيرة الأمة والدولة والمجتمع.؛ استئناف الاجتهاد السياسي في ضوء فقه النص وفهم الواقع وتحدياته.
- **الحكم ومعيار الشرعية:** الحكم الراشد: وعلاقة الأمن بالاستقرار والتنمية؛ الشراكة السياسية؛ المواطنة؛ المعارضة؛ التعددية؛ تشكيل الأحزاب؛ غير المسلمين....؛ منظمات المجتمع المدني؛ المنظمات الدولية؛ المعاهدات الدولية؛ مقارنات؛ ومقاربات معاصرة؛ وتميز مقاصد الحكم في الإسلام؛ بناء تصور سياسي للتعامل مع التحديات واستشراف المستقبل.

• شروط الجائزة:

١- أن يكون البحث قد أُعدّ خصيصًا للجائزة.

٢- أن تتوفر في البحث شروط البحث العلمي.

٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ مطبوعة، ومخزنة على قرص (CD) مرفق بالبحث، إضافة إلى ملخص باللغة الإنجليزية، إن أمكن.

٥- لا يقل حجم البحث عن (٢٠٠) صفحة (A4)، ولا يزيد على (٣٠٠) حوالي: (٦٠.٠٠٠) كلمة بخط (Traditional Arabic) بحجم (16).

٦- تحجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث للمستوى المطلوب.

٧- يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٨- تسحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث مخالف لبعض شروط الجائزة.

٩- لا تُمنح الجائزة للفائز مرة أُخرى إلا بعد مرور خمس سنوات.

١٠- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين.

١١- على الباحث أن يرفق نبذة عن سيرته العلمية، ونسخة مصورة عن جواز سفره.

*** ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:**

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

لمزيد من الاستفسار:

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠(٩٧٤+)- فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

البريد الإلكتروني: m_dirasat@islam.gov.qa

موقعنا على الإنترنت: www.Islamweb.net

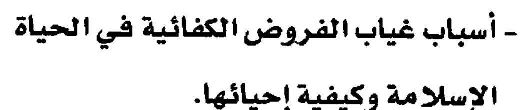




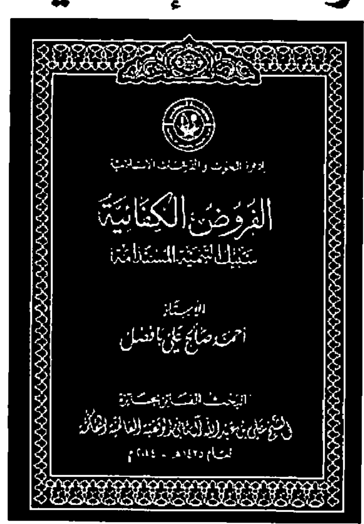
الأستاذ

أحمد صالح علي بافضل





صدر عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية



أهم المحاور:

- أسباب غياب الفروض الكفائية في الحياة الإسلامة وكيفية إحيائها.
- الفروض الكفائية سبيل الاكتفاء الذاتي.
- إحياء الفروض الكفائية سبيل إلى إحياء مؤسسات المجتمع.
- الأسس والأبعاد النفسية والفكرية للفروض الكفائية.
- علاقة الفروض الكفائية بالرؤية والتخطيط الاستراتيجي للنهوض.
- الرؤية المستقبلية لكيفية إحياء الفروض الكفائية.

البحث الفائز بجائزة

الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية العالمية

لعام ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م